
نجيب محفوظ
التنظيم السري

التنظيم السري

تأليف
نجيب محفوظ



التنظيم السري

نجيب محفوظ

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: سامح عرفة

الترقيم الدولي: ٩ ٣١٥٤ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٤.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

التنظيم السري

في ركن النادي الذي يجمعنا للسمَر، تنطلق الآراء كالمفرقعات، لا تترك كبيرة ولا صغيرة حتى تمزِّقها جدلًا. وتتصارع المشروعات ووسائل تنفيذها حتى تُبَحَّ منَّا الأصوات إلا ذلك الصديق القديم. لا يشترك في همومنا الجِدِّيَّة برأي أو بـ «لا» أو بـ «نعم». قد يُثرثر في الأمور العابرة، ولكنه عند الجد يلوذ بالصمت. يغيب عنا بنظرة شاردة، يتخذ من هامش الحياة وطنًا. على ذلك لم يخرج من قلوبنا لمودته الدافئة وجذوره المتأصلة في منابتنا. ويومًا اتصل بي تليفونيًّا في الديوان، وقال لي: أود مقابلتك غدًا صباحًا في محل توت عنخ آمون.

فوافقت من فوري، وفي الموعد جلست أنتظره. وهلَّ عليَّ دون تأخير، فرُحنا نشرب القهوة ونتبادل نظرات التمهيد، وهو يرنو إليَّ جادًّا حتى خُيِّل إليَّ أنه استعار شخصية جديدة تمامًا. وقرَّب رأسه مني، وقال: فكِّرْ قبل أن تتكلم؛ فالكلمة هنا ارتباط أبدي.

فأثار اهتمامي لدرجة لم أتوقَّعْها، وحدَجْته بنظرة داعية للمزيد من الإفصاح. قال: لم يكن مفرٌّ من هذا التحذير، ثم أدخلُ في الموضوع رأسًا!

فقلت واهتمامي يتصاعد: ادخلْ.

فكَوَّر قبضته الضخمة وتساءل: آنست منك رغبة في العمل؟

فلمحت أول بصيص نور، وسألته في دهشة: كيف عرفت ذلك؟

– من متابعتي للمناقشات!

فقلت بدهشة أكثر: حسبتك لا تنتبه إلى أقوالنا!

فابتسم ولم ينبس، فقلت: هاتِ ما عندك.

فاعتمد على المائدة بمرفقيه وسألني: أتعني ما تقول حقًّا؟

فقلت بصدق: كل كلمة، كل كلمة!

– إذن فأنت ترغب في العمل؟

أدركت مغزى تحذيره ولكن وعائي كان طافحًا بما فيه، فقلت مندفعًا إلى مصيري: أجل.

– العمل — بخلاف الكلام — باهظ التكاليف.

فقلت بتحدٍّ: أُدرك ذلك تمامًا.

فقال ببطء: الندم فيما بعدُ غير مجدٍ.

– أعتقد ذلك.

– والتراجع يعني الموت.

– طبعًا .. طبعًا.

فقال بارتياح: صدقني حدسي.

فقلت وأنا أغالب انفعالاتي الداخلية: يا لك من داهية!

فقال كالمعتذر: هي الحياة.

فقلت بشيء من الحدة: أو هو الموت، ليفعل الله ما يشاء.

– بداية طيبة.

فقلت بشوق: هات ما عندك.

فقال بسرعة: ما لديَّ قليل، أقل مما تتصور، أسرة مكونة مني وأربعة آخرين ستعرفها مساءً، عدا ذلك لا أعرف إلا شخصًا أتلقى منه الأوامر.

– ولكن الأسرة وحدة في كلٍّ، وعلى رأس الكل رئيس، ماذا تعرف عن ذلك؟

فقال ببساطة: لا شيء.

فتساءلت في حيرة: ونظل نعمل في الأسرة يحيط بنا الظلام؟

– ربما، وربما انتقلت إلى أسرة من مرتبة أعلى.

– ومتى أَصِل إلى مركز الرئيس الأعلى؟

– علمي علمك، المهم العمل والهدف!

وتفحَّصَني بنظرة ثاقبة، وقال: إنهم أدرى بما يحقق الأمان والنجاح.

ومر بي نهار لم يمر بي مثله في حياتي، كمن يبدل لحمه ودمه وخلاياه وروحه، كمن يُولد في دنيا جديدة ذات قوانين جديدة، كمن يُوَدِّع الطمأنينة واللامبالاة ليستقبل المغامرة والموت. لم يبقَ لي من الماضي إلا الاسم، وحتى هذا سرعان ما يتغير. وفي المساء انعقد أول اجتماع للأسرة في بيت صغير بمصر القديمة. كنا خمسة، على رأسنا الصديق القديم المرموز إليه بـ «أ». لِمَ لا؟ لقد أصبحنا رموزًا لتحقيق أهداف. وجلس على رأس المائدة ينقِّل

عينيه بيننا، مكتسيًا مهابة جديدة وتأثيرًا نافذًا. قال: أُرحب بكم في أسرتنا التي جمعتنا على الخير، هي التي أخرجتنا من العبودية، وطهَّرتنا من عبادة الأصنام، فلنجعل من الكمال زينتنا، ومن الحب رابطتنا، ومن الطاعة شعارنا، ولنعمل في نطاق ما نعرف — ولا نسأل عما لا نعرف — واحذروا الخطأ؛ فلا خطأ يمر بلا عقاب.

وتتابعت الاجتماعات لمذاكرة الأهداف والوسائل، أو لمعرفة الأجوبة عن بعض أسئلة عاجلة، ومناقشة الاقتراحات. وطيلة الوقت استحوذ رئيسنا المباشر «أ» على إعجابي بعقله الراجح وحدسه الصادق وخُلقه المتين، مع قوته الجسدية الخارقة، كأنما هو بطل من أبطال المصارعة الحرة، وإن ساءتني جديته الصارمة التي تضنُّ بالابتسامة، فضلًا عن الدُّعابة. وعزَّيت نفسي قائلًا: إنه لولا ضرورة هذه السجايا لعمله ما اختاره الرئيس الأعلى للجماعة الذي يضع، ولا شك، الرجل المناسب في المكان المناسب، والذي تتسلَّل إلينا أوامره من مثواه المجهول عبر مندوبين مجهولين كذلك، حتى إن «أ» نفسه لا يعرف مِن ذاك الجهاز المعقد إلا فردًا واحدًا. وقد رأيته يلوذ بالصمت في أعقاب مناقشة ثقيلة جرت في أحد الاجتماعات، فقلت بعفوية: ألا يحسن أن يجتمع رؤساء الأُسَر بالرئيس الأعلى في اجتماعات دوريَّة لنطمئنَّ على سير الأمور؟

فاستيقظ من صمته راميًا إياي بنظرة صُلبة، ثم قال: ارتكبتَ عدة أخطاء دفعةً واحدة!

وراح يعدِّد على أصابعه قائلًا: قطعتَ عليَّ تفكيري، تدخَّلتَ فيما لا يعنيك، خالفتَ وصية من الوصايا!

فهالني الأمر وقلت معتذرًا: إني آسف يا سيدي.

– لا بدَّ من العقاب، وإني أحكم عليك بالامتناع عن التدخين شهرًا كاملًا، ابتداءً من هذه الساعة!

وصدمني الحكم، ولكني لم أنكص عن تنفيذه — رغم ثقله — بوازع من ضميري. على أننا كنا نشعر في الوقت نفسه بأننا موضوعون تحت مراقبة خفية يمارسها جهازنا الغامض، بالإضافة إلى مطاردة الشرطة المستمرة. هذا ما تطوَّعنا للخدمة فيه بدافع تلك الرغبة الجنونية المقدسة في تغيير الكون. حسبنا أن نؤمن بأننا ضمن الصفوة المختارة بدقة، رسَمَ خطوطَها ذلك الرئيسُ الأعلى الذي صار — هو وجهازه — أسطورة يتحدث عنها الناس في كل مكان. وتنشط دوائر الأمن العام إلى اكتشافها بكل سبيل، انطلاقًا من حوادثها المتكررة ومنشوراتها السرِّية المثيرة. وما أدري يومًا ونحن مجتمعون حول المائدة إلا و«أ» ينظر نحوي ويسأل: أين القلم الرصاص الذي وجدته أمامك في الجلسة السابقة؟

فقلت ببراءة: لعلي أخذته معي.

فسأل ببرود: من أين علمت أنه وُزِّع للامتلاك؟

فقلت في استياء: سأرده في المرة القادة، أو أبتاع بديلًا عنه.

فقال ببرود أشد: نحن نعتبر ذلك نوعًا من السرقة!

فقلت بغضب: لقد بعنا الحياة نفسها دون مقابل؛ فكيف نُتهم بسرقة قلم رصاص؟

فقال بهدوء هو أشد من الحدة: لا تمنَّ علينا بالتضحية؛ فإنك لا تُضحي من أجلنا، ولكننا نُضحي جميعًا من أجل الهدف، وقد حكمتُ عليك بألا تستعمل يدك اليسرى لمدة شهر!

ركِبَني هَمٌّ ثقيل، فذهبت إلى مطعم «فلسطين» بالسكة الجديدة لتناول العشاء. وجلست إلى أقرب مائدة إلى فتاة وحيدة. لاحظت رغم هَمِّي أنها لم تطلب شيئًا، ولم يقترب منها الجرسون. ولاحظت أيضًا أنها تنظر نحوي بجرأة وثبات لا يصدران إلا عن امرأة هوًى. على جمال كانت ولكن منظرها أوحى بالفقر، بل والجوع أيضًا. قالت لي عيناها: «ادعوني للعشاء من فضلك.» ورقَّ قلبي لها فابتسمت، وسرعان ما ردتِ الابتسامةَ بأخرى مبتذلة. قلت إنها ما زالت تشق طريقها الوَعرة، وأشرت إلى المقعد الخالي أمامي، فانتقلتْ إليه دون تردد. تناولنا عشاءً من المكرونة والخبز الجاف، فالتهمت طعامها بنهَم وبلا حياء. حلَّ الارتياح مكان التوتر في وجهها، وتبادلنا الابتسام دون تعارف، ثم سألتها لأبدِّد الصمت: مِن هنا؟

فقالت بنبرة ذات معنًى: مسكني فوق المطعم.

لم تكن في رأسي خطة نهائية، فنظرتُ في الساعة، فسألتني: نقوم؟

فاستسلمتُ بلا حماس وبلا فتور، فتأبَّطتْ ذراعي ومضَتْ بي نحو مدخل المبنى في عطفة خلفية. لستُ من مدمني ذلك ولا من الهواة، ولكنها تعرض لعازب. وكانت رقيقة وثرثارة وغير مُحنَّكة، فدار حديثها حول ضجيج العاصمة. وسألتني: ما ليدك اليسرى؟

فقلت بامتعاض: روماتيزم خفيف.

فقالتْ مجامِلة: ولكنك في عِزِّ الشباب.

فقلتُ بضيق: أمراض عصرنا لا تُفرق بين شيخ وشابٍّ.

وغادرتُها وهي تقول: لتكن أُولى الزيارات لا آخرها.

وصادفتني متاعب متلاحقة في البيت والديوان لعدم استعمال يدي اليسرى، بالإضافة إلى سوء المزاج الناتج عن الامتناع عن التدخين. وتمخَّض اجتماع الأسرة التالي عن مكدِّرات جديدة لم تكن في الحسبان؛ إذ التفت «أ» نحوي قائلًا: ما زلتَ ماضيًا في طريق الضلال!

فنظرتُ إليه مبهوتًا، فقال: الزنا بعد السرقة.

فالتهبتْ وجنتاي وغضَضْت بصري، فقال: كأنك لا تُدرك خطورة زلَّتِك؟!

فقلت باستماتة: هفوة شخصية، لا تمس سلوكي العام.

– هراء، المرأة أشد خطورة من الشرطة.

فقلت مدافعًا: الزواج عسير جدًّا في هذه الأيام.

فقال ببرود: في الهدف ما يغني ويُسلي عن سواه.

وواصل عقب صمت قصير: إنك كثير الجدل، فمتى تتعلم الطاعة؟

وفكر قليلًا ثم قال: مراعاةً لظروفك، سأكتفي بتغريمك مائة جنيه تؤديها على أقساط.

وجدتُني في مأزق. كِدت أندم على فكرة التطوع نفسها، ولكن لم يغِبْ عني أن التراجع الآن يعني الموت. وتعزَّيت بما أحرز من نجاح حين عرض الآراء، وتنفيذ ما أُكلَّف به من أعمال. وتخيلت رئيسنا الأعلى — قياسًا على «أ» — في صورة عملاقة جبَّارة، جديرة حقًّا بالإجلال والخوف. ومازج شوقي إلى معرفته رغبةٌ في البقاء بعيدًا عن بابه. ولم أُخطئ بعد ذلك، وتقدمت في الدرس والتدريب تقدمًا محمودًا سمعت من أجله الثناء تلوَ الثناء، فتلاشى الحرَج وذكرى العقوبات. وفي ختام اجتماع هام للأسرة، استبقاني «أ»، ووضع أمامي مظروفًا مغلقًا، وقال: تسافر إلى «…»، وتقابل «…» الكاتب بالمحكمة، وتُسلِّمه الرسالة خِفْية، وتعمل بما يشير به عليك.

كنت تدرَّبْت تمامًا على وسائل معرفة المكان، ومواعيد القطارات والاتصالات الخفِيَّة. وشرعت في العمل خطوة فخطوة، حتى سلمت الرسالة للرجل. وأشار عليَّ بالنزول في فندق بالبلدة والانتظار. وفي الصباح جاءتني سيارة فورد قديمة، ودعاني السائق إلى الجلوس إلى جانبه، وانطلق بها بلا تعارُف أو كلام. وفي وسط الطريق قال: في الصندوق الخلفي حقيبةٌ جلدية.

ووقف على مبعدة من البيت الذي تجتمع فيه الأسرة بمصر القديمة. حملت الحقيبة رغم ثقلها، وسرت بها نحو البيت. غالبتُ توتري لدقة الموقف وخطورته، ثم وضعتها على المائدة أمام «أ»، وجلست مزهوًّا وأنا أشعر بأنني هجرت دنيا الناس إلى الأبد. وفتح «أ» الحقيبة، فحال غطاؤها بيني وبين رؤية ما بداخلها. ودام فحصه ربع ساعة، ثم أغلق الحقيبة وقال: أمضيت وقتًا في المقهى، ناسيًا أن الغريب يلفت الأنظار في البلدان الصغيرة.

فخفق قلبي متوقعًا عقوبة جديدة، ولكنه قال: ولكنك عبرتَ البحر بسلام!

فشاع في نفسي الرضا، وامتلأتُ ثقة وإحساسًا بالنصر، وقمت بأعمال قيِّمة على مدًى غير قصير، في وثَبات متلاحقة حققت لي مركزًا لا بأس به. واستدعاني «أ» ذات يوم، فوجدته وحده بحجرة الاجتماع. أجلسني في أقرب مقعد إليه، وقال لي: تقرَّر أن تفارقنا إلى أسرة جديدة.

نظرت إليه مليًّا وأنا أُغالب انفعالاتي، ثم سألته في حذَر: أتسمح لي بسؤال أو أكثر؟

فحنى رأسه بالإيجاب، فسألته: ماذا يعني أسرة جديدة؟

– أسرة الزميل الوحيد الذي أعرفه خارج أسرتنا، ويُدعى «ب»، وهي وحدة ضمن وحدات متصاعدة، لا فكرة لي عن عددها، تنتهي بالجهاز الأعلى.

فداخلني ارتياح، وسألت: وما نوع العمل في الأسرة الجديدة؟

– لا أدري!

– مَن الذي رشحني للأسرة الجديدة؟

فأجاب ببساطة: عملك.

وقام آخذًا بيدي إلى حجرة صغيرة داخلية، وهو يقول: دعني أقدمك إلى رئيسك الجديد.

وجدناه جالسًا ينتظر. ومن عجَب أنْ طالعني بصورة مناقضة تمامًا لتخيُّلي له. تصورته يفوق «أ» في القوة والعملقة، فإذا بي حيال شاب يكبرني بأعوام، جميل المحيا، رقيق الحاشية، يأسر الناظر إليه بلطفه وعذوبته. كيف يرأس هذا الشاب أسرة هي أقرب في موقعها من الرئيس الأعلى، وعليها مهام — ولا شك — تجاوزها في الشدة والعنف؟! وكيف يضع رئيسنا الأعلى ثقته في شخصينِ تقطع الدلائل بتناقضهما الكامل؟ تُرى متى يُتاح لي مقابلة ذلك الرئيس العجيب الذي أَقَضَّ مضاجع الشرطة، وأثار الرأي العام لدرجة الهوَس؟ وتبادلت مع «ب» كلمات رقيقة، فاستحوذ على حبي من اللحظات الأولى. ومضى بي في سيارته الصغيرة ١٢٨ إلى حديقة «الوردة البيضاء» بطريق سقارة. سألته قبل أن ندخل: أعندك فكرة عن هذه الحديقة؟

فدخل مبتسمًا وهو يتأبط ذراعي. وسرعان ما احتوَتْنا مقصورةٌ تكتنفها الخضرة والأزهار، وتحبو فوقها أشعة الشمس في مطلع شتاء لطيف. وجدت الأسرة الجديدة بكامل عددها، وهي مكونة مثل أسرتي الأولى من خمس، ولكني عجبت لاختياره مكان الاجتماع في حديقة سيئة السمعة لا يرِدُها عادةً إلا طلاب الحب المحرَّم. وقلت: لعله داهية ذات قشرة ذهبية، أو ماء تحت تِبْن. وشربنا الشاي بسرور وارتياح وهو يقول: أهلًا بكم في أسرتنا الجديدة.

وتفكَّر قليلًا ثم واصل: لكلٍّ منكم سابقته المحمودة المتسمة بالشدة والخطورة، ونحن الآن بصدد عمل جديد ذي أسلوب آخر، لا تنكُّر للماضي، ولكننا نستكمله بأسلوب جديد كل الجِدَّة، وإلا ما دعت الضرورة إلى إنشاء أسرة جديدة، مستهدفين في النهاية غاية واحدة، وإياكم والاستهانة بعملكم الجديد ذي المظهر الخادع؛ فمثلكم مثل زارع يرمي في الأرض ببذرة لا تكاد تُرى، ولكنها ستنمو ذات يوم شجرةً باسقة يلوذ بظلِّها المعذبون في الأرض.

وصمت قليلًا ثم قال: كانت مهمتكم السابقة التصدي للوجه القبيح، والانهيال على قبحه باللكمات الصادقة، أما مهمتكم الجديدة فهي التغنِّي بالوجه الجميل المنشود، حلم اليوم وحقيقة الغد، ولكن أي أغانٍ وأي ألحان؟! .. أغانٍ جديدة وألحان جديدة.

الْتَمع في الأعين حب استطلاعٍ وَهَّاج فقال: سأكون المؤلف والملحن، وستكونون المغنين، وسأضع في كل حنجرة اللحن الذي يناسبها!

وضَح في الوجوه ما يشبه الذهول، فقال: المهمة ظاهرها الترفيه، ولكنها تنطوي على جدية فائقة، ويحف بها الخطر من كل جانب .. فليوطن كلٌّ نفسه على التضحية.

وقلَّب عينيه في وجوهنا متسائلًا: هل من أسئلة؟

وفي الحال سألته: أنعتبر حديثك من المجاز والرمز؟

فأجاب ببساطة: بل إنه واقع وحقيقة!

– هل حقًّا تُحفِّظنا ألحانًا لننشدها؟

– بكل تأكيد.

– لكننا لسنا مغنِّين.

– كل فرد يستطيع أن يُغني في حديقة عامة، فيسمعه من يشاء أن يسمع.

– من ناحيتي لا أملك أي موهبة غنائية.

– لا يهم. العبرة باللحن، أما الأغنية فأغنية حب من لون جديد!

– قد يعتبر الجمهور غناءَنا تكديرًا لصفوه.

– ربَّما.

– وقد يسخر منَّا.

– ربما.

– وقد يعتدي علينا.

– ربما؛ ولذلك لا بد من توطين النفس على التضحية.

فقال زميل منفعلًا: عملنا السابق أخفُّ رغمَ عُنفه.

فأجاب باسمًا: محتمَل جدًّا.

وترددتُ قليلًا ثم قلت: لديَّ سؤال وأخاف العقاب.

فقال «ب» بسرعة: لا موضع للعقاب في قاموسنا.

فسألته: وما جدوى الأغاني والألحان والغناء؟

فقال بهدوء: أكبر مما تتخيَّل!

فسألت مندفعًا بشجاعة جديدة: وهل وافق رئيسنا الأعلى على عمل أسرتنا؟

فقال باسمًا: لسنا إلا أدوات تنفيذ.

ثم بنبرة حماسية: اسمحوا لي أن أدعوكم إلى عشاء من الشواء والنبيذ لنتعاهد على الحب والعمل ونحن في أطيب حال.

وشرَعْنا في الحال في الحفظ والتدريب، ثم في العمل. وتعرضت لحرج ومتاعب لا نهاية لها. آمنت بأن عملي الجديد أشق من القديم، رغم إحساسي بأنني أعمل في جوقة موسيقية تحت إشراف شاعِر وملحن في آنٍ. وعجبت لشأنه، وعجبت أكثر لشأن رئيسنا الأعلى الذي يستعمل كل هذه الحيل المتناقضة والأساليب المتضاربة لتحقيق أهدافه. واستقرت في وجداني عبارة «ب»: «لا موضع للعقاب في قاموسنا.» فشجعني ذلك على التخفيف من توتر أعصابي بزيارة جديدة لفتاة مطعم فلسطين بعد انقطاع، رغم ما سمعت من إدانة لذلك، وتحذير من المرأة التي هي أشد خطرًا من الشرطة، ورغم علمي المسبق بأن سلوكي لن يخفى عن رئيسي كما لا يخفى سلوك أحد من أفراد الجهاز بعامة. وسُرت الفتاة بزيارتي سرورًا أنساني قلقي ووساوسي، وهداني إلى اكتشاف جانبٍ رقيق في قلبها لا يوجد عادةً في حومة الاحتراف. وقال لي «ب» في أول اجتماع تلا مغامرتي: لا اعتراض لي على الحب.

فاشتعل وجهي بالحياء فقال: ولكنه دونما رباط عبءٌ على نقاء القلب.

ففطنت إلى ما يشير إليه، وقلت باستنكار: ولكن …

فقاطعني: لا تستشهد بمأثورات حياة قد أعلنتَ الحرب عليها!

ثم تحول إلى موضوع الاجتماع كأنما قال قولته الأخيرة في المسألة. وجاء زواجي من الفتاة مغامرة لا تقل في خطورتها عن كبرى مغامراتي التي قمت بها وأنا عضو في أسرة «أ». وفي ليلة الزفاف أتى «ب» دون دعوة، وأهداني قارورة من أفخر أنواع النبيذ الأحمر. وهمس في أذني وأنا معه آخر الليل: صُن سرك في أعماق قلبك وحده.

وواصلتُ حياتي ما بين الديوان والحدائق العامة وعش الزوجية فوق مطعم فلسطين. وكان الاجتماع لم يُسبق بمثله؛ إذ تخلف عنه لأول مرة أحد الزملاء. وأشار «ب» إلى المقعد الخالي وقال بأَسًى: أُلقي القبض عليه.

فذُهلت أنفسنا وتغيرت ألواننا، فقال: لعله تهاون في الكتمان.

فقال زميل: قد يدفعه التعذيب إلى الاعتراف بما يهدد أمن الأسرة.

فقال: من أجل ذلك سنؤجل اجتماعاتنا إلى أجَل غير مسمًّى، وسنختار مكانًا آخر. على أني متيقن أنه سيتحدى الموت قبل أن يعترف!

رجعت إلى وحدتي الأولى. وانسربت إلى نفسي سموم الهواجس والمخاوف، فتوقعت أن تصل إلى عنقي القبضة الحديدية في أي وقت من ليل أو نهار. أجَل، كانت حياة كل زميل مجهولة تمامًا من بقية الزملاء خارج نطاق العمل المشترك، ولكن أيُّ ضمان ثمة لذلك؟! كانت أيام خوف وضياع. وصادفني يومًا أحد الزملاء في ميدان العتبة. صافحني خارقًا تقاليدنا الثابتة وقال: معذرة، ثمة أخبار غاية في الخطورة.

تولاني رعب من قبل أن يُفصح، واستوضحته بعينيَّ دون لساني، فقال: قبضوا على رئيسنا «ب» نفسه!

فهتفت بفزع: من أين لك هذا؟

قال بغموض: شائعات تطايرت في مكان عملي، والشائعة في مكان عملي تُعتبر خبرًا!

تجهم وجهه حتى الظلمة، وقال: ويقال إنه قُتل وهو يُستجوَب!

هتفت: يا للفظاعة!

فقال: وثمة همس عن أن زميلنا المقبوض عليه أولًا قد باع نفسه، ودلَّ على الرجل!

فقلت باضطراب: يجب أن نهرب.

فقال بحنق: لا خوف من ناحيته بعدُ؛ فقد وُجد في السجن ميتًا بالسُّم، والتحقيق جارٍ مع الجميع.

وتابعت الصحف ولكنها لم تُشِر من قريب أو بعيد إلى جماعتنا. تُركنا في الظلام، وانقطعت الصلة بيننا وبين الجهاز، وانطويت على سري دون شريك أحاوره أو ألتمس عنده العَزاء. واحتوتني غربة وسط عالَم مُعادٍ لا أدري متى ينتشلني اليأس من العذاب. واستدعاني رئيسي المباشر في الديوان وسألني: ما لك؟ لست كعادتك، أهو الزواج؟

فادعيت المرض فقال: قُمْ في إجازة تجنبًا لمزيد من الأخطاء.

هربت من الديوان لأسقط بكليتي في قبضة نفسي. أما زوجتي فأرادت أن تُخفِّف عني بعض ما لمست من اضطرابي فقالت: ستكون أبًا يا حبيبي.

فتظاهرت بسرور لم أعُد أتذكر طعمه أو رائحته. واتجه فكري إلى رئيس الجهاز الأعلى، فتساءلت عما يدبر لرتق الفتق الذي مزَّق جهازه؛ كيف يصل ما انقطع؟ وهل يعلم بما نعاني في ضياعنا، أو يفكر في التخلص منا حفظًا لأمن جماعته كما تخلص من زميلنا الخائن؟! وانطوت الإجازة، ورجعت إلى عملي، وكلما مرَّ يوم دون مفاجأة أخلدت إلى شيء من الطمأنينة، حتى بتُّ أعتقد أني راجع حتمًا إلى تفاهة الحياة ومرارتها اليومية كفرد من ملايينها الذين يتعذَّبون ويتشكَّون ويتصبرون وينتظرون دون جدوى. وقلت لنفسي على سبيل التعزِّي: لعل التفاهة في النهاية أرحَمُ من الخوف والضياع. وتعاقبَت الأشهُر حتى خرج وليدي الأول إلى الوجود، ومضيت أنهمك في مجريات الحياة اليومية. وذات صباح وعقب أُبوتي بشهر، دق جرس الباب فذهبتْ زوجتي لترى الطارق، ثم عادت لتقول بدهشة: يقول إنه مندوب شركة الشرق للتأمين!

فذهبت بنفسي إلى الباب، وسألته عما يريد، فقال بصوت عريض مليء: اسمح لي بخمس دقائق، إني قادم من أجل ابنك، ربنا يحفظه بعين رعايته.

وجلسنا في حجرة الاستقبال متواجهين. كان متوسط الطول، متين البنيان، أنيق المظهر، بشوش الوجه كما يجدر بتاجر، قوي النظرات، بيده حقيبة، وجاءت زوجتي مدفوعة بحب الاستطلاع، فانتظر حتى جلست وقال: جئت يوم الجمعة لأضمن لقاءك، ومهمتي هي صميم عملي؛ فنحن نتابع المواليد ونزور الأُسر لإقناع الآباء بالتأمين على الأبناء، ويا بخت مَن يرى غده في يومه!

فسألته زوجتي: أيكلِّفنا ذلك ما لا نطيق؟

فأجاب بنبرة مُشجعة: التأمين أصلًا للذين لا يملكون، وهو درجات، ولكلٍّ درجته، وإن بَعْد العسر يسرًا.

وفتح حقيبته فتناول كراسة أعطانيها وهو يقول: إنها حاوية لكافة الأنواع، وستجد فيها ما يناسبك إن شاء الله.

ونهض قائمًا، فاصطحبته إلى الباب مودعًا. ودسَّ في يدي ورقة، وصافحني وهو يهمس: لا علاقة لي بشركة التأمين، اقرأ ما في الورقة بعيدًا عن عينَي زوجتك، ستجد فيها المكان والوقت فلا تتأخر.

قال ذاك وذهب. وددت لو بقي دقيقة أخرى ليبلَّ ريقي الجاف. هكذا بُعثتُ فجأة واشتعلت روحي بالنار المقدسة من جديد. رجعتُ إلى الحياة ومعاناة الإحساس المُضني بحمل الأمانة.

وفي الموعد كنت في بيت عتيق بالقلعة، يقع في بقعة فاصلة بين العمران من ناحية وبين مدينة الأموات من ناحية أخرى. وكالعادة الأسرة الجديدة مكوَّنة من خمس يرأسها «ج» (مندوب شركة الشرق)، أما الأربعة الآخرون فكان اثنان منهما — أنا أحدهما — من أسرة المرحوم «ب»، وواحد زاملته في أسرة «أ»، والرابع جديدًا لم تقع عليه عيناي من قبل. قال «ج»: مضى ما يقارب العام دون اتصال.

فقلت من فوري: عام محنة وعذاب.

أما زميلي من أسرة «ب» فتساءل: هل عادت أسرتنا القديمة، أسرة «ب»، برياسة جديدة؟

فقال «ج»: أسرة «ب» موجودة برياسة جديدة، أما هذه الأسرة فهي أسرة جديدة بالنسبة لكم.

وتنحنح ثم واصل حديثه: لم يمضِ العام هدرًا، كلا، ولكنه مضى في التحري والمتابعة والمراقبة، كان على رئيسنا الأعلى — وهذا محض ظن مني — أن يطمئن إليكم، وأن يسبر غَور الشرطة وعيونها الشرهة، وأعتقد أني تلقيت أوامره في الوقت المناسب.

وقلت لنفسي إن هذا الرجل يعني ما يقول، وإنه قادر على ملء الفراغ بالثقة، وسرعان ما أحببته. أما هو فقال: أهلًا بكم في أسرتكم الجديدة، هي الأخيرة أيضًا، يليها مباشرةً الجهاز الأعلى، ولا أُخفي عنكم أني أتلقى التوجيهات من السكرتير العام نقلًا عن الرئيس الأعلى حفظه الله ورعاه.

وأشعل سيجارة، آذنًا بإشارة لنا بالتدخين لمن شاء، ثم قال: ولعلكم تتساءلون عن أسلوب العمل، أول ما أقول إنه يقوم بصفة مبدئية على القواعد المرعية في الأسرتين السابقتين، فلا يجوز أن تُهمَل تجربة ناجحة أثبتت جدواها، فلا تنسوا ما تمرَّستم به في أسرتكم الأولى، وما تمرستم به في أسرتكم الثانية، بالإضافة إلى ما سيجِدُّ، ولا تنسَوا أن جميع الأُسر وحدات في أسرة كبيرة واحدة ذات هدف واحد ورئيس واحد.

وقلَّب عينيه في وجوهنا، ثم واصل حديثه: وفي كل أسرة طالبوكم بحب زملائكم فيها، وهو أول مطلب أطالبكم به في نطاق أسرتكم، ولكنكم مطالَبون إلى ذلك بحب الجميع بلا تفرقة؛ وفاءً بحق المنبع الذي منه نهلتم، ولو لم يبادلوا حبكم بحبٍّ مثله؛ لجهلهم بوجود أسرتكم!

وتمهل قليلًا ثم قال: وعملنا عجيب، ومحيِّر إلا لمن يعقل. يحتاج إلى الصبر كما يحتاج إلى التهور، إلى التضحية بالمال والروح والحرص على المال والروح، إلى الاعتماد على النفس والتوكل على الله، إلى الزهد في كل شيء، والشكر على كل طيب، إلى حب الحياة وحب الموت!

وانتظر حتى نفذت كلماته إلى أعماقنا، وراح يقول: وقد ألفتم الطاعة فيما مضى، وما زلتم مطالَبين بها هنا فيما أنقل إليكم من أوامر. ولكنكم مطالَبون بالإبداع فيما عدا ذلك. لا راحة ولا كسل ولا رجوع إليَّ إلا فيما أبلغت من أوامر صريحة، وقد تمرستم بكافَّة الأساليب، ولكم أن تضيفوا إليها ما تقتنعون بصوابه، ومصيركم رَهنٌ بفطنتكم.

ولأول مرة أشعر بأن المهمة أشقُّ مما تصورت؛ فإذا به يقول: وما العاقبة؟ .. قد تكون الشرطة والعياذ بالله، أو ميتة بطولية، أو الترقي إلى مكتب الرياسة!

ولم أتمالك أن رفعت إصبعي؛ فأذِن لي بالكلام، فقلت: تصورت أنني كلما اقتربت من الرياسة أن تجب الطاعة أكثر، ويقل الاعتماد على النفس.

فقال بثقة: تصوُّر خاطئ؛ فرئيسنا حُر، وما كانت ثورته إلا من أجل الحرية.

فتماديت في السؤال قائلًا: لمَ لا يسمح لنا القائد لنستمد منه الشجاعة والقوة؟

فأجاب: لا سبيل إلى ذلك إلا بالعمل إلى ذلك؛ فهو يتابع العمل بكل يقظة.

فتماديت أكثر قائلًا: رغم ذلك؛ فقد ترك «ب» لجلَّاديه يقتلونه!

فرَنَا إليَّ طويلًا حتى عصرني الندم، ثم قال بصوت مهموس: لا أحد يملك أن يقطع برأي في مصير زميلنا العزيز …

وتبادلنا نظرات هاتفة جياشة، ولكنه قال بعجَلة وحزم: آن لنا أن نرفع الجلسة التي ما قصدت بها إلا التعارف، وإلى اللقاء!

وتعاقبت الاجتماعات، وتتابعت الأوامر، وكثرت الاجتهادات، وأنجزنا أعمالًا كبارًا، حتى لاح النصرُ في الأفق مثل إشراقة الفجر. وسقط كثيرون متلفِّعين بالبطولة، فزادنا ذلك استبسالًا وإصرارًا، وجعل رئيسنا «ج» يقول لنا كلما اجتمعنا: حقًّا إنكم لرجال!

أو يقول: سيرحل الشر عما قليل؛ فقد يئس من الأرض.

وكان ذا حلم يشجِّع على المناقشة، فقلت له ذات مرة: أما آن لي أن ألقى الرئيس؟

فقطَّب في غير غضب، وسألني في عتاب: أيداخلك شك في عدالة تقديري؟

فقلت بسرعة وصدق: معاذ الله يا سيدي.

– ألا يكفيك ما أنت في شغل به؟

فقلت بتوسل: أصبحت يا سيدي وكأنني من مجانين العشق.

فضحك ضحكة خفيفة، وقال: مَن يدري؟ لعلك رأيته وأنت لا تدري.

فرمقته بذهول غير مصدق، فقال: إنه — على مدى علمي — لا يعيش في برج عاجي، ولكنه يمارس حياته بين الناس، وربما غَشِي الأماكن التي تجوبها للعمل أو الراحة.

فقلت منكرًا: لو لمحته للفت نظري بقوة شخصيته.

فقال باسمًا: ما أكثر الأشياء الجديرة بجذب الأنظار، لولا انغماسنا في الأمور العابرة!

ردَّدت قوله على مسمع قلبي طويلًا، وكِدت أُشغل به عن كل شيء، لولا نداء العمل الذي لا يكف عن الصراخ.

وتواصل النجاح واقترب الشروق، حتى انفجر رأي لم يقنع بكافة الإنجازات التي تمَّت، وتلهَّف على النصر النهائي. من أي أسرة انبثق ذلك الرأي؟ أم هل انبثق في الأُسر الثلاث في وقت واحد؟ بدأ بدعوة إلى عقد مؤتمر عام تحت الإشراف المباشر للرئيس الأعلى؛ لإعادة النظر في الخطة من أولها إلى آخرها. ولما لم تلقَ الدعوة القبول وقع ما يمكن اعتباره التمردَ الأول في الجماعة؛ فقد اجتمع ممثلون عن الأسر، وتسابقوا في عرض تصوراتهم الجديدة. واحتدم النقاش حتى انتهى بكل فريق إلى التحيز إلى أسرته، وإيثار أسلوبها على جميع الأساليب والمناداة العامة بالانضواء تحت لوائها. وزلَّت القدم زلة أخرى فراح كل فريق يسخر من أساليب الفرق الأخرى. وارتفعت موجة الغضب إلى تبادل السباب والشتائم، ثم انزلقوا إلى الاشتباك بالأيدي والأرجل، وتمزقت الوحدة، وانعزل الناس الطيبون وهم يذرفون الدمع، متوقِّعين أن تنقضَّ الشرطة في الوقت المناسب، فتقوض البناء من أساسه. ولم أصدق ما أرى وما أسمع، وقطَّع الأسى قلبي، وهُرِعت إلى رب أسرتي، وقلت له: ما حدث لا يُصدق.

فقال بحزن: هذه الأمور تحدث.

فتساءلت بحسرة: أبعد مشارفة النصر نقع في اليأس؟

فهتف بحدة: لا تلمس اليأس بلسانك!

– أما يزال لديك أمل؟

فقال بنبرة قوية واضحة: انتظر، كلا، لا تنتظر. اندفع بلا تردد لصنع ما هو صادق وطيب، ما هو إلا امتحان؛ وككل امتحان، فالأجوبة الصحيحة معروفة من قبل.

وتلقيت كلماته كما يتلقَّى الظمآن قطرة من الماء العذب.

مَمرٌّ البُستان

بعد تردد طويل أجمعت على الذهاب.

نشدت الستر في الليل، وغُصت في عطفة السنبلة المستكنَّة تحت أمواج الظلام. عرفت طريقي بضوء الذاكرة الخفي، هاتِك الظلمة ومرشِد القدم. وتسللت من الباب الحديدي الموارب، ففغمتني رائحة بخور أليفة. ومن حسن الحظ أنني لم أجد في الدار أحدًا من الزوار، فطالعتني وحدها متربِّعة على أريكتها الفارسية، في ثوب مُزخرف بألوان شتى هادئة على هيئة أَهِلة وزهور، مرسوم بحنايا جسم مدمج فصيح، وجفنين شبه مُسدَلين، على أنامل تعبث بأوراق اللعب، لا تمل في وحدتها من استطلاع الغيب. لم ترفع عينيها نحوي، كأنما عرفَت القادم من وقع خُطاه، وكأنما تعمدت تجاهله. ولفرط شعوري بالإثم لم أجرؤ على مبادءتها بالتحية، فجلست على أقرب كرسي إليها لائذًا بالصمت. واصلتْ قراءة الورق، ومضيتُ أفكر في طريقة لفتح الحديث بعد أن تبخر من رأسي ما كنت أعددته تأثرًا بجو الحجرة المفعم بالذكريات، وبفتنة الإغراء الماثلة في تراخٍ. وتظاهرت بالاهتمام كأنما كاشفها الورق بحقيقة غير عادية، فهمست: فِعْل آخر يناطح عناده!

وندت عنها آهة مليحة، وتمتمت تُكمل الرؤيا: سيلهب ظهرَه سوطٌ مُحملة أطرافه بالرصاص!

فقلت في تسليم مجيبًا على تعريضها بي: ما مضى قد مضى، وعليَّ أن أنظر إلى الغد.

وكأنها بوغتَت بوجودي، فنظرت نحوي بدهشة وهتفت ساخرة: دستور يا أسيادي!

فوضعت مظروفًا متوسطًا بين يديها، وقلت: جئت لأسدد ديوني، وأنظر إلى الغد.

فقالت تُخاطب الورق: جاء ليسدِّد ديونه وينظر إلى الغد.

فقلت برجاء: يجمعنا العيش والملح، وأنتِ سيدة العارفين!

فقالت بجدية لأول مرة: هذه أمور تقع كل يوم.

فقلت بحرارة: لم يعد الزمن يأذن إلا بمطلب واحد.

فأجابت بهدوء: الأمان.

فقلت متشجعًا: الأمان، وكلما شاورت في الأمر صاحبًا أشار إلى رجل واحد!

فقالت باسمةً: إنه مَن يشار إليه في هذه الأيام.

فقلت بأسًى: ولم أجد مَن أستشفع به إليه؛ لِما عُرف عنه من كراهية للوساطة، ولكنهم قالوا لي إنَّ كلمتكِ أنتِ لا يمكن أن تخيب عند أي عظيم.

فقالت في مباهاة: هذا حق لو أنه كان من أصحابي.

فتنهَّدتْ، ولم أدرِ ما أقول، فقالت في ملاطفة: اعرف طريقك بنفسك.

فندت عني ضحكة ساخرة، وقلت: ها أنتِ تهزلين!

لو يجيء مرة واحدة لملكته كالآخرين، ولكن أغلب رواد حانة القمر من أصحابي إلا هو.

فقلت في حسرة: آهٍ لو تقع هذه المعجزة!

وتبادلنا النظر مليًّا. وفاضت عيناها بحيوية طارئة، وضحكتْ، ثم سألتني: ما رأيك؟

فرمقتها بنظرة متسائلة، فقالت: أن تقوم أنت بالمهمة.

– أي مهمة؟

– المجيء به إلى هنا.

– ولكن كيف؟

فقالت بجدية: إنه يغادر حانة القمر عند منتصف الليل، ثم يخترق ممر البستان إلى الميدان حيث تنتظره سيارته؛ فالممر هو أنسب مكان للقائه.

– ولكنه أبعد ما يكون عن معرفتي!

فأغرقتْ في الضحك، وقالت: تقترب منه بأدب أولاد الناس الطيبين، وتقول هامسًا: «أتريد كأسًا جميلًا؟ بيت نظيف مكنون!»

فقطبتُ غاضبًا من سخريتها، وأشَحْت عنها بوجهي، فسألتني: ألا يعجبك اقتراحي؟

فقلت بحدة: اسخري ما شئتِ من ورطتي!

فقالت بجدية: إني جادة، إن كان الأمان يهمك حقًّا.

فصحتُ متسخطًا: كيف تتصورين أن أفعل بنفسي ذلك؟!

– ما هي إلا مغامرة عابرة يعقبها تحقيق المراد.

فتساءلتُ بازدراء: أليس لديكِ الكثيرون ممن يحترفون ذلك؟

فقالت بإباء: لست في حاجة إلى أحدٍ منهم.

– وهل أكون أنا أول مَن تختارين؟!

– ما هي إلا مغامرة عابرة، ألا تفهم؟

– كلَّا، لا أفهم.

– بل عليك أن تفهم، ولا بأس أن تختار موضعًا في الممر بعيدًا عن نور المصباح لتتشجع بالظلام.

– وكرامتي؟

– إني لا أدعوك إلى الاحتراف، ما هي إلا حيلة لمرة واحدة، ولك أن ترفضها إن يكن لديك سبيل آخر.

لدى عودتي لم أرَها ما أمامي من شدة انفعالي. لم يداخلني شك في قوة سيطرة المرأة على الرجال، ولكني رفضت السقوط بتصميم غاضب شرس، حتى خُيل إليَّ أني لم أعد أكترث للأمان، مرفأ الإنسان الأخير وهو على الحافة. وكأنما هان عليَّ أن ألقى غول الغلاء وشظف العيش والمهانة والفترة الحرجة من العمر، واشتعلت في رأسي حرب بلا هوادة ولا توقُّف، ورحت أجوب المقاهي والحانات في ليلٍ لا يريد أن يتزحزح. وقُبيل منتصف الليل بقليل وجدتني واقفًا في ممر البستان عند أقصى موقع عن نور المصباح. ماذا جاء بي؟ لعلي أردت أن أُلقي نظرة من قُرْب على ذلك الرجل الذي لم أرَ إلا صورته في الصحف في بعض المناسبات. وكأنه كان يتحرك بانضباط فلكي؛ فعند منتصف الليل تمامًا أهلَّ من ناحية حانة القمر بقامته المديدة يمزق السكون بوَقْع خطاه الثقيلة. خفق قلبي وتهاويتُ من عليائي. ولما حاذاني في مسيره تقدمت منه خطوة، وسرعان ما تشتت عقلي في مخاوف شتى، فكدتُ أرى الأصابع تشير إليَّ. عند ذلك امَّحت ذاكرتي وشلَّ لساني. وانتبه هو إليَّ فضرب بشبا عصاه الأرض محتجًّا على اقترابي المفاجئ، فتراجعت ومضى في سبيله.

ولم يدم ذلك طويلًا؛ ففي أثناء النهار لم أُعفِ نفسي من اتهام. لماذا ذهبت إلى ممر البستان؟ لِمَ اقتربت من الرجل خطوة؟ وهل منعني حقًّا من الكلام إلا تشتت عقلي ووقوعه فريسة للمخاوف؟ الحقيقة أنني أخاف الناس. هم الأشباح التي تطاردني. تُرى هل ينفعوني غدًا لو قاسيت شظف العيش والهوان؟! وانسقت بقوة إلى مطاردة الأشياء الغريبة عن ذاتي، ولم أُبالِ أن أتخذ موقفي في ممر البستان قبيل منتصف الليل. وانتظرت في تصميم وحيرة معًا حتى أقبل الرجل نحوي في طريقه إلى الميدان، واقتربت منه وأنا أهمس: لديَّ كأس ونديم جميل وبيت آمن!

والتفت نحوي التفاتةٌ سريعة. كان الظلام يفصل بيننا، ولكنه أحاط ولا شك بهيئتي. وسرعان ما أشاح عني بوجهه، وقال وهو يمضي بنبرة غاضبة: عليك اللعنة.

احترقتُ حياءً وخِزيًا فلم يغمض لي جفن. لقد بعتُ أعز ما أملك بلا ثمن. رضيت بالهوان ولكنه أعرض عني بكل ازدراء. ومع الليل ذهبت إلى عطفة السنبلة، وما إن رأتني مقبلًا على مجلسها حتى هتفت: الخيبة مسطورة على وجهك!

فقلت وأنا أنحط فوق الكرسي يائسًا: لنبحث عن وسيلة أخرى.

وحكيت لها ما حصل، فقهقهتْ ساخرة، وقالت: يا لكَ من بغل! تتعرض لجنابه بهذا المظهر الوقور الأنيق؟!

فسألتها حانقًا: وماذا كان بوسعي أن أفعل؟

فاسترسلتْ في الضحك، ثم قالت: لعله ظنك شخصًا من خصومه يروم الإيقاع به.

– على أي حال، فإن ذلك يؤكد وجوب البحث عن سبيل آخر.

فقالت بجدية: لا سبيل لك غير ذلك؛ فلتصحح التجربة.

فتفرست في وجهها الجميل غير مصدق، فقالت: البس الرداء المناسب لغايتك.

رجعت غاضبًا عليها، وغاضبًا على نفسي، غاضبًا على رغبتي المُلحَّة في الأمان. ومضت أيام وأنا مستغرق في حوار مجنون مع ذاتي، حتى وجدتني مرتديًا جلبابًا وطاقية وحذاءً باليًا، أنتظر في ذات الموقع بممر البستان قبيل منتصف الليل. ومن شدة إحساسي بالهوان هان عليَّ فلم أعد أُبالي به. ولما أزفت الساعة أقبل بقامته المديدة، فتوثبت للعمل حتى حاذاني، فدنوت منه وأنا أقول: عندي ما يسر العين وتشتهيه النفس.

فلوَّح بعصاه حتى تقهقرت مذعورًا، وقال بامتعاض وسخرية: ماذا قلت يا صاحب السمو؟!

ورجعت إلى داري وأنا أُلملم نفسي المبعثرة، وأغوص في أعماق خيبة جامعة. وتضاعف سخطي ولكن تضاعف تصميمي أيضًا. وذهبت إلى السيدة وقصصت عليها قصتي متحديًا، غير أنها هزت رأسها في أسف وقالت: حقًّا إنك لبغل، وفي حاجة إلى مَن يسندك لدى كل خطوة تخطوها.

فقلت ثائرًا: اقتربت منه لا فرق بيني وبين أحقر صعلوك.

فتساءلت ساخرة: وصوتك؟

– صوتي؟

– خاطبته يا حضرة بالصوت الذي اعتدت أن تخاطب به مرءوسيك؟!

فقلت بارتياب: لا أظن.

فقاطعتني: لا تُبدد الوقت، إني خبيرة بهذه الشئون!

وغبتُ أيامًا قضيتها في التفكير والحزن والتدريب دون أدنى تفكير في التراجع. وكيف أتراجع بعد أن بعت كل شيء بلا ثمن؟ ولما رجعت إلى موقعي بممر البستان كان الصبر قد أنهكني، وكذلك القلق والأسى. ولما حانت اللحظة المرتقبة تقدمت بخفَّة وحنيت رأسي بذل، وقلت بانكسار ولكن بمرارة لم أستطع التخلص منها: عندي شيء طيب، في مكان محترم وآمن.

فمضى دون اكتراث بي. ولما هممت بإسماعه صوتي من جديد نهرني قائلًا: الأجدر أن تدعو الناس إلى المآتم!

وسرعان ما فطنتُ إلى زلتي، بل الحق أنني حنقت على نفسي لغلبة المرارة على صوتي، واعترفت بكل شيء للسيدة لأتقي سخريتها، وقلت بتسليم: لن أعود إلى المحاولة.

فتساءلت في استنكار: أتيئَس بعد أن لم يبقَ إلا قيراط من الصبر؟

فنفخت قائلًا: لا نهاية للأخطاء، وقد مللت!

فقالت لي بنبرة مشجعة متجنبة أي إثارة من السخرية: فكِّر قليلًا يا صاحبي القديم، كيف يمكن أن تستسلم لليأس وأنت على قيد خطوة من النجاح؟ إنك متوهم أنك صبرت بما فيه الكفاية، ولكن ما قيمة الصبر بغير الرضا؟ وقد أبديت إصرارًا لا بأس به؛ إذ من كان يتصور أنك تُقدم على ما أقدمت عليه؟ ولا تنسَ في النهاية أنك تسعى إلى اصطياد رجل ولا كل الرجال.

فقلت بريبة: يخيَّل إليَّ أنه ليس من أهل ذلك؟

فقالت ضاحكة: بل هو ذلك نفسه!

ثم مواصلةً بجدية: ولولا ثقتي من ذلك ما عرَّضتك للتجربة، وأنا لست ممن يخونون العيش والملح.

وتركتها بروح منتعشة، وتفتَّح الورد في صدري من جديد، فصبرت أيامًا ولا هَم لي في الحياة إلا ممر البستان، حتى وجدتني في الموقع أنتظر. ورأيته مقبلًا بقامته المديدة، فالتزمت موقفي حتى مرَّ .. ثم تبعته بخشوع وأنا أهمس: لا تدَعْ فرصة العمر تفوتك!

فلم يلتفت نحوي ومضى. فتبعته بعِناد وأنا أهمس: بيت آمن ويليق بجنابك.

وإذا به يسألني فجأة: أين؟

فقلت بسرور لم أجرِّبه من قبل في حياتي كلها: عطفة السنبلة، البيت الثالث إلى يمين الداخل.

وكنا اقتربنا من الميدان فنادى سائق سيارته، ولما جاء مهرولًا، صاح به آمرًا: اقبض على هذا الرجل ونادِ الشرطي!

فوضعت راحتي على فم السائق باستماتة، وقلت وأنا أنتفض كالمصعوق: كلَّا .. انتظر .. لست منهم .. أنا رجل محترم.

فأمره بإشارة أن يدعني وشأني، وتساءل متهكمًا: محترم؟

فقلت وما زلت أنتفض كالمصعوق: إليك بطاقتي.

وتناولها وراح ينظر فيها ثم تساءل: كأنك محتال.

فاندفعت أقص عليه قصتي بصراحة كاملة، مذ اجتاحني نشدان الأمان، فأزاح بقية مطالب الحياة عن كاهلي. وصمت مليًّا وهو يتفحصني على ضوء الشعاع الهابط من مصباح في الميدان، ثم قال ببرود: إياك أن تريني وجهك مرة أخرى!

وعقب أيام لم أحصِها جررت قدمي إلى عطفة السنبلة، وكأنما قد طعنت في العمر أعوامًا مديدة. ولما شارفت مدخل الدار برزت من تلافيف الظلام عجوز، واعترضت سبيلي قائلة بصوتها الهرم: السيدة معتكفة.

فعرفت صاحبة الصوت وتساءلت: ماذا وراءك يا أم بركة؟

فعرفت بدورها صوتي، وقالت: السيدة تُطالبك بتجنب الزيارة حتى تُرسل في طلبك.

فخفق قلبي وتساءلت: هل تنتظر السيدة زائرًا مهمًّا؟

فقالت أم بركة: لا عِلْم لي بشيء، اذهب مصحوبًا بالسلامة.

ولم أجد مفرًّا من الرجوع. وتكشفت لي سُحب الغموض عن أمل. ما كانت تتخذ هذا القرار لو لم تكن تنتظر زيارة هامة. وما معنى قولها «حتى تُرسل في طلبك» لو لم يكن للأمر علاقة بمشكلتي؟ أسفر الظلام عن أمل، وخفق قلبي بالرؤى، ولاح لي الأمان بوجهه المشرق وراء غبش الظلام. لم يبقَ إلا التحلي بالصبر. وها هو التلهُّف يحيل الصبر عذابًا حقيقيًّا. ومرت الأيام، وعذاب الصبر يتفجر ويزداد افتراسًا. همي الوحيد هو الانتظار، وتساؤلي المتردد هو: متى يجيء الرسول؟!

البُستاني

كان وما زال حلمي الوردي أن أستقر بعد المعاش في بيت ذي حديقة صغيرة، وأن أُكرس بقية العمر لِفلاحة الأزهار والبساتين. ومن أجل تحقيق هذا الحلم رسمت لنفسي خطة طويلة الأمد؛ أن أبذل في عملي أقصى ما أملك من جهد؛ كي أرقى في سُلمه إلى درجة تضمن لي معاشًا محترمًا، وأن أسيطر على سلوكي ونظام معيشتي؛ كي أدخر من مرتبي ما ييسر لي بناء البيت المنشود بعد انضمامي إلى إحدى الجمعيات التعاونية، وأن أدرس دراسة متأنية فِلاحة الأزهار والبساتين. ولو أن الخطة نُفذت في كتمان وحكمة ما تعرضت لقيل أو قال، ولكنني كنت وما زلت من الآدميين الذين لا يخفون أسرار أحلامهم، فعرف جميع الصحاب حلمي الوردي وما أُعد له، وعلم به آخرون، حتى عُرِفت على مر الأيام، وعلى سبيل المزاح، بالبستاني. وجرت المقادير في مجاريها غير عابئة بحلمي الأثير، فتعرض العالَم لويلات من الحروب والأزمات، فمضت الأسعار في ارتفاع، وقِيَم النقود في الهبوط، ولم تتحقق وفرة بلا حساب إلا فيما أنتجت من بنين وبنات. والأدهى من ذلك كله أني لم أحظَ برئيس ينتفع بمواهبي، فيرشحني لدى حلول الفرصة للترقية. وكنت أقول بصوتٍ باتَت الشكوى سمة غالبة على نبرته: يا سادة، ألا يلقَى عملي المتواصل عندكم شيئًا من الجزاء؟

ولما لا أجد أُذنًا صاغية أقول: وإذا عزَّ العدل أفلا يوجد شيء من الرحمة؟

فيقول لي رئيسي: انتبه لواقعك يا بستاني، أين الإنتاج الذي تحدِّث عنه؟ ما أنت إلا مستخدَم عادي دون المستوى المطلوب.

فأقول مستميتًا في الدفاع: ولكني مجتهد، ولكل مجتهد نصيب.

فيضحك قائلًا: لم يعد العصر يحفل بالأمثال القديمة، اليوم نحن نربط الحوافز بالإنتاج.

وجعلت أغوص في الحيرة والظلام. أقلعت عن ذكر حلمي الوردي، ولكنه ظل فرجتي وحلم يقظتي. وكلما لمحت لونًا أخضر تراءت لخيالي الحديقة، فتنقلت بين ورودها وأزهارها، مُلقيًا خبرتي في خدمتها، متلقيًا منها مسرات الأريج والألوان. غير أن زوجتي لم يكن يشغلها إلا مستحقَّات البقَّال والجزَّار والدروس الخصوصية، ولا تكف عن تذكيري. وعانيت أمر تحمُّل الأعباء ومرارة الإخفاق، حتى رقَّ لي رفقاء الطريق من زملائي الخائبين، فهمس في أذني أحدهم: كيف تحتمل الحياة بلا ابتسامة؟

فسألته: خبرني كيف يروق لك الابتسام؟

فهمس بإغراء: عليك بخمارة «خذ واشكر».

كان في غاية الوقار والتعاسة، فعجبت لشأنه، وقلت بفتور: كيف تدعوني إلى مزيد من الإنفاق؟!

فضحك قائلًا: معاذ الله! هل يعزُّ عليك ادخار قرش واحد، ولو بالرجوع مشيًا على الأقدام مرة؟

تكلَّمَ بثقة ويقين، فقلت أجرب، وهكذا اهتديت إلى خمارة «خذ واشكر»، في عطفتها الأثرية «زاوية العابدين» بالباب الأخضر. وهي أشبه بمغارة في جوف جبل، تعيش في ليل دائم يغوص في عمق المبنى الضيق المُهلهل التي تقع في أسفله، يفضي إليها باب مقوَّس الهامة ولا نافذة فيها، ذات شكل بيضاوي، وفي نهاية عمقها يقوم برميل ضخم ذو صنبور سفلي، يجلس إلى جانبه على أريكة عجوز يُدعى عبد البر، وتصطفُّ على جناحيها أخْوِنَة خشبية ومقاعد من القش المجدول. ويُقدَّم الشراب في كوب صغير مضلع لا يملأ عين الظامئ، وهو شراب مجهول الهوية لا يَعرف كنهه حتى الراسخون في السُّكْر والعربدة. وسرعان ما تبين لي أن قلة من رواد الخمارة من يستطيعون تجرُّعَ الكوب حتى ثمالته، وكثرة تقنع بنصفه لشدَّة مفعوله، وبقاء أثره حتى الفجر. وما كدتُ أرشف منه رشفات، حتى أكرمني غاية الكرم، فاغتال بنفثاته الزاحفة وُحوشَ الهموم التي تطاردني ليل نهار، وأحل محلها الأُنس والرضا والبشاشة. ووجدتني وسط الحديقة أغرس جذورًا جديدة، وأقطف أزهارًا يانعة. ومال صاحبي نحوي قائلًا: هلم نناقش همومنا الملحَّة.

فقلت محتجًّا: أريد الحديث عن الورود وأنواعها.

فقال ضاحكًا: ها قد وصلت إلى الحديقة.

فسألته: ألا تسمع تغريد البلابل؟

واندفعنا نُغني معًا:

الزهر في الروض ابتسم.

وكانت تقاليد الخمارة ترحب بالغناء. ومن كلِّ ركن ترامت أغنية مشرقة، وجلس عبد البر، بلا حراك وهو يبتسم.

وحرصت على كتمان السر ما وسِعَني ذلك، غير أن الخمر ذات رائحة ناطقة من المتعذر إخفاؤها إلى الأبد، من أجل ذلك افتُضح أمري، وتلقيت فيضًا من اللوم والتعنيف، وكانت زوجتي أول البادئين، فقالت لي: أكان ينقصنا هذا الداء؟

فقلت لها بصدق: إني أؤدي ثمنه مشيًا على الأقدام، ولم يمس الميزانية بسوء.

فتساءلتْ: والأولاد الذين يكبرون يومًا بعد يوم؟

فقلت بضيق: ربنا يستر.

ولكن السر انتشر في أماكن كثيرة، تعدى من لسان إلى لسان، فدعاني بالكاساتي مَن سبق أن أطلقوا عليَّ البستاني. وتجلى أثر ذلك في موسم الترقيات، فقال لي رئيسي متهكمًا: كنت ذا هم واحد فأصبحت ذا همين.

فقلت محتدًّا: يا أهل العدل والإنصاف، احكموا على عملي، ولا شأن لكم بسلوكي خارج الديوان.

فقال الرجل بامتعاض: ولكن الثقة لا تُفرق بين هذا وذاك.

فقلت محتدًّا أكثر: المسألة أنني بلا شفيع!

واستجاب القدر لشكاتي الخفية فجاد عليَّ بالشفيع المنشود. كنت في خمارة «خذ واشكر» على أحسن حال. وحكيت لصاحبي حالي بيني وبين رئيسي، وأنا مغمض العينين فقال لي: سيكون لك الشفيع الذي تريد.

فالتفتُّ إليه متسائلًا، ولكنه كان قد اختفى تمامًا، وحل محله آخر لم أرَه من قبل. كان يرتدي عباءة من كتان أبيض ذات ذيل من جلد النمر وعلى رأسه عمامة خضراء. عجبت بهيئة وجهه التي تُذكِّر بوجه الأسد، رغم ميل جسده إلى القِصَر. وسألته بدهشة: من أنت؟ .. وأين جليسي؟

فأجاب بهدوء مُفعَم بالثقة: إني شفيعك.

ولم يداخلني شك في صدقه أو قدرته، وتلقَّيت ذلك فيما يشبه الإلهام الذي لا يُناقَش. من أجل ذلك قمت وأنا أقول: خير البر عاجله.

واصطحبته إلى بيت رئيسي في الزيتون، في تلك الساعة المتأخرة من الليل. وطرقت الباب بشجاعة لا أدري من أين مأتاها، ففتح الباب بنفسه، ونظر إليَّ بذهول واستياء لم يحاول إخفاءه. وجلس قبالتنا في حجرة الاستقبال متجهم الوجه، فقلت: معذرة عن زيارة في وقت غير مناسب.

فقال دون مجاملة: هذه الساعة من الليل!

فأومأت إلى رفيقي وقلت: أقدم لسيادتك شفيعي.

فلم يحول بصره عني، وقرأت في ناظريه توجسًا وقلقًا، فالتفتُّ إلى صاحبي، وقلت برجاء: تكلم يا سيدي.

فقال الشفيع بهدوئه المكين: إنه يستحق الترقية لدرجة جديدة في طريقه الطويل!

فنظرت إلى رئيسي، وهو غائص في روبه البني القاتم، فإذا به يتمادى في القلق والخوف. وأشفقت من إحراجه فنهضت قائمًا، وأنا أقول: موعدنا الغد يا سيادة الرئيس.

وجاءت ثمرة الشفاعة بعكس ما قدَّرت؛ فقد تقرر إحالتي على المعاش قبل بلوغي السن القانونية بخمسة أعوام. ولم تُجْدِ الشكاوى المتلاحقة التي رفعتها إلى الجهات المختصَّة. وساء مركزي في أسرتي وفي الأماكن الأخرى. وكاد بناء أسرتي أن ينهار لولا سعيُ أهل الخير لإلحاقي بأعمال إضافية، فعملت مُصححًا بمطبعة السعادة، وكاتبًا على الآلة الكاتبة بالقطعة في مكتب توكيل. وبات حلم امتلاك البيت والحديقة خرافة، ولكني لم أكفَّ عن ممارسة أحلام اليقظة في خمارة «خذ واشكر». وجعلت أقول لصاحبي: كأنما جاء الشفيع ليخرب بيتي.

فقال الرجل: ولكن حالتك اليوم أحسن مما كانت، وأنت في الخدمة.

فقلت متشكِّيًا: ولكني أعمل كالثور في الساقية.

فقال باسمًا: الصبر مفتاح الفرج.

فقلت بحنَق: وددت لو يجيء مرة أخرى لأسأله.

فقال ساخرًا: خلِّها على الله، بلا مناقشة ولا وجع دماغ.

وبلغتْ دراستي لِفلاحة الأزهار والبساتين غاية يُعتدُّ بها، فسنحت لي فكرة مثيرة، وهي أن أستثمر معلوماتي متطوعًا بلا أجر. ألا يجعل ذلك من الحلم حقيقة؟ ومن المستحيل

ممكنًا؟ إن الحدائق الخاصة في حيِّنا متوفرة بكثرة تفوق الحصر، وإذا عَرضت على أصحابها خدماتي؛ فلن يرفضوها ولو على سبيل مجاملة الجار. بذلك لا يُهدر عنائي الطويل المتواصل، ولا يتلاشى سروري في الحياة. وها أنا أمضي البقية الباقية من حياتي في الخضرة بين الأزهار دون حاجة إلى تدبير أو شراء أو بناء، وكأنني أملك بدَل الحديقة الواحدة عشرًا.

هكذا حققت حلمي متجاوزًا كافة عقبات الطريق.

النسيان

اشتعل خيالي فانفجرت موجاته في جميع الأرجاء، ولكنه لم يلمَّ بالمدينة اللانهائية. إنها تربض في أي مجال من مجالات البصر، كائنًا عملاقًا بلا حدود ولا تناسق، ملوِّحة بآلاف الأذرع والسواعد والأصابع، تستوي فوقها آلاف مؤلَّفة من الأبنية الشاهقة المجللة بطابع العصر المتعجرف التيَّاه، وأخرى متهرِّئة حال لونها في قبضة الزمن الجارف، وثالثة آيلة للسقوط يلتصق بها سُكَّانها في استسلام وإصرار، وفي فِجاجها يتلاطم الناس في صخب، ويتلاقون في غفلة وضوضاء، وتتابع الباصات والسيارات والكارو والجِمال وعربات اليد عازفة أصواتها المتضاربة. والحوادث كثيرة، والأفراح صارخة، والجنازات زاعقة، والمشاجرات دامية، والعناق حارٌّ، وحناجر تنادي على سِلَع من الشرق والغرب والجنوب والشمال، ويختلط الأنين الشاكي بشهقة الحمد والرضا.

مأوى المهاجرين من الكفر مثل طوق نجاة في البحر العاصف. يستقبلني شيخ القبيلة المهاجرة قائلًا: ابن جديد، أهلًا بك في أسرتك.

فألثم يده وأقول: شكرًا لك يا عمِّي.

ووجدت مقعدي في المعهد ينتظر أيضًا. وكنت عند حسن الظن فتُوِّجتِ الرحلة بالنجاح، وأُلحقتُ بالعمل في مصلحة المساحة، وأنا أقول «مَن جَدَّ وَجَدَ». ومن العمل تسللت إلى المقاهي والأصحاب، ولكن بحذر المتقشِّفين. وراودتني أحلام القلوب الصائمة. وفي مأوانا ورود متفتِّحة. ودارت العجلة بالأصباح والأصائل والأماسي. وحدث شيء مألوف؛ حلم عابر يُذكر أو يُغفل، ولكن يبدو أنه ومض في عيني ومضة لم تغب عن بصَر شيخنا الثاقب، فقال لي وهو متربِّع على أريكته يناجي حبات مِسبحته: في نفسك شيء يدور.

فقلت باسمًا: جاءني في المنام شخص، وحذرني من النسيان.

فتفكر مليًّا ثم قال باسمًا أيضًا: إنه يذكِّرك بالشباب!

وفطنت إلى ما يلمح إليه. وفي مهجرنا لا تَحول الصعاب بين المرء وبين ما يشتهي قلبُه. قبيلة متآخية متراحمة. والحجرة تتَّسع لزوجين بمثل ما تتسع لفرد. والعروس جاهزة منتظرة، وثمة تسهيلات جمة ومساعدات ميسرة. ويقول الشيخ: لنلتزم بالسُّنة الشريفة، وعلى بركة الله.

وتُطلى الحجرة، وتؤثَّث بالجديد المناسب، وتستقبل عروسَين في تلك المدينة الهائلة التي لا تبالي بأحد. والحياة في مهجرنا تقوم على التضامن، وتتفتَّق عن حِيَل كثيرة للتغلُّب على عسرة الأيام. وأقول لنفسي وأنا في غاية السعادة: طريقنا عبَّدَته أقدام أسلافٍ كرام.

وانهمكت في الحب والزواج والأبوة والعمل. وجعلت أقول للشيخ: الفضل لله ولك.

فيقول بامتنان: بيتُنا مثل سفينة نوح في هذا الطوفان الذي يحدِّق بنا.

فقلت له: عمي، الناس تحسدنا وتغبطنا.

– ويزداد ذلك كلما أمعنَّا في الزمن.

وانتبهت ذات ليلة على الحُلم يعود من جديد. ويحذرني ذلك الرجل من النسيان. رأيته كما رأيته في المرة الأولى أو هكذا خُيِّل إليَّ؛ الرجل هو الرجل، والكلام هو الكلام. واستمع الشيخ إليَّ باهتمام ثم قال: عوَّدتنا أن تحلم بهواجسك.

فقلت: قلبي مطمئنٌّ وخالٍ من الهواجس.

– حقًّا؟! ألا تفكر في مستقبل أسرتك؟

فقلت كالمحتج: سعيد في هذا الزمان من يستعدُّ ليومه.

– وماذا تفعل غدًا إذا ألحَّت عليك المطالب؟

فلُذْت بالصمت في كآبة، فقال: افعل كما يفعل كثيرون، استعِنْ بعمل إضافي.

ويسَّر لي بنفوذه التدريب في مركز سباكة. وبرعت في ذلك براعة محمودة، ورحت أستثمر خبرتي الجديدة مساءً بعد فراغي من عملي الرسمي، وتوفَّرت أرباحي فتراكمت مدَّخراتي. وتابَع الشيخ نجاحي بارتياح وهو يقول: هذا خير من الانحراف، وزماننا يطالبنا بأن نكون كالقطط بسبعة أرواح.

ودبَّ في أوصالي نشاط باهر، وانتشيت بحب الحياة، وتغافلت عن فوضاها الضاربة في كل موضع؛ وأغراني ذلك باكتراء شقة غُرمت فيها خُلوًّا لا يُستهان به. وودَّعني عمِّي في شيء من الفتور وهو يقول: هكذا تجري الأمور.

وآمنت بأنه لا طمأنينة لحي بغير العمل والمال، وبأن أسعد ما نناله في دنيانا مستقبَل مأمون. وحافظت على اعتدالي بقدر الإمكان، فلم يجدَّ جديد في حياتي سوى التدخين

واللحوم الدسمة والحلوى الشرقية. وتخرَّج أبنائي وبناتي في مدارس اللغات، وأقبل مع الأيام كلُّ شيء حسن. وفي غمرة حياتي العذبة انتبهت ذات ليلة على الحلم يعود للمرة الثالثة، ويحذرني الرجل من النسيان كعادته. رأيته كما رأيته في المرتين السابقتين، أو هكذا خُيِّل إليَّ؛ الرجل هو الرجل، والكلام هو الكلام. وعجبت ولم أفلح في الاستخفاف به. ولم يكن الشيخ قريبًا لأحاوره. وكنت قد انقطعت عنه فترةً غير قصيرة لانهماكي في العمل، فكرهت أن أزوره زيارة غير بريئة لمنفعة. وساورني قلق تسلَّل لسلوكي، فعانت منه زوجتي، وقالت لي: خير من ربنا وشر من أنفسنا!

فقلت باستهانة: ما هو إلا حلم على أي حال!

فقالت مصدقة: ولا أراك تنسى شيئًا.

ولكني لم أستطع التملص من قبضة الحلم العجيب. ظل يطاردني ويشغل بالي، وتحت تأثيره اندفعت من الطوار إلى الطريق لأعبره دون انتباه لحركة المرور. فجأة وبلا انتباه، وانقضَّت عليَّ سيارة من قريب، فلم تستطع أن تتحاماني أو تفرمل قبل أن تصدمني وتطيح بي كالكرة. فقدت الوعي تمامًا، حتى استيقظت في المستشفى على حال لا يُرجى معها أمل.

ومن منطلق العِبرة والأسى يحدِّثنا الشيخ فيقول: نُقل إلى المستشفى تُظلُّه سحابة الموت السوداء، فأُجريت له جراحة خطيرة، وثبت من التحقيق وشهادة الشهود بأنه اندفع إلى الطريق فجأة وكأنما يقصد الانتحار، وبأنْ لا مؤاخذة ألبتة على السائق. وجلست جنب فراشه وقد علمت بأنه لا أمل في نجاته، وزارنا صاحب السيارة مواسيًا ومتطوعًا لمدِّ يد المساعدة، فمكث قليلًا ثم ذهب. وتحرَّك جَفنَا ابن أخي، وتجلَّت ومضة ضعيفة في عينَيه، فأدنيت أذني من فيه، وسمعته يهمس: إنه الرجل، هو هو صاحب الحلم.

وكانت آخر كلمات ندَّت عن شفتَيه.

صاحبةُ العِصْمة

يوم جاءت كان يوم بياض نهاره توارى في عتمة غاشية تحت السُّحب المتراكمة، ونسائمه جالت مثقلة بالبرودة تسفع الوجوه وترعد الأطراف، ونُذُر المطر تهيم في الفضاء. وتوجَّس الناس فحملوا السلع إلى أعماق الحوانيت، ولاذت عربات اليد بالأفنية. لم يبقَ في الحارة إلا الصغار يتحدَّون عبوس الجو بمرحهم المستهتر. جاءت في حنطور يتأوَّد فوق أديم مبلط، يشده حصان مهزول، ويسوقه حوذي عجوز نعسان، مسبوقة في اليوم السابق بأثاث فخيم بهر الأعين المتفحصة. وقف الحنطور أمام آخر بيت من ناحية القبو، فمرَقت منه إلى الداخل امرأة رشيقة محجبة، لم يكشِف نقابها المحكم عن ملمحٍ من ملامحها، وتبِعَتْها عجوز سافرة مقوَّسة الظهر من الهرَم. أذاعت صاحبة البيت بأن الدور الثاني والأخير اكترته أسرة ذات شأن ووزن، ولكن لم يتصور أحد أن تتكون من امرأة وحيدة وخادم عجوز. ولما دارت العربة بصعوبة لضيق المكان لترجع من حيث أتت، وثَبَ رجل نحو الحوذي وسأله: من أين جئت بحمولتك؟

فأجاب العجوز وهو يهز اللجام مستحثًّا حصانه على السير: من زين العابدين.

ولم يُشبع الجواب نَهَم أحد، وأخذ الرذاذ يرش الأرض. وقال صوت: الخير على قدوم الواردين.

فتعجب آخر: أي خير في هذا الجو العاصف!

ورغم انهماك الخلق في غيابات الحياة اليومية وانغماسهم في الحساب، نفثوا مع أبخرة أفواههم الظنون وجاشت صدورهم بالأَخيِلة المحرَّمة، واستفحل الخطب بتسلُّل أنباء عن ترملها المبكر ووحدتها المثيرة وترفعها المتحدي، وما خلَّفتْه وراءها من احتدام الأهواء الجامحة. تقول مالكة البيت بفخار: أرمل الشيخ النقيب صاحب الوقف المعروف باسمه، وشرطه الأول أن يبقى استحقاقها ساريًا ما بقيت أرمل، فإذا تزوجت سقط حقها في الريع.

ويطالبها صاحب الوكالة بوصفها فتقول: لمحة عابرة، ولكنها ثمرة ناضجة قُبيل منتصف العمر، ليس كمثل جمالها شيء.

ويتجهم وجه المرأة الغامق مثل قشرة الدوم، وتقول محتجة: لا تُرحب بلقاء أحد، ولا أنا صاحبة البيت، أُصبح على وجه خادمتها الكركوبة أم طاهر، أما كوثر هانم ...

ويقاطعها أكثر من رجل: اسمها كوثر؟

– كوثر البدري كما هو مرقوم في عقد الإيجار.

وأم طاهر تجول في الحارة مع تعاقُب الأيام. تطوف بالجزَّار والبقَّال والفاكهي والعطار والبنَّان وتُعرض عن المتطفلين. وسيدتها قابعة في أعماق ذاتها، لا تُغادر البيت، لا تلوح في نافذة، ولكنها غزت الأخيلة بسحرها الخبيء، وأشعلت الوجوه والأطراف بوَقْع نظرتها المتسلِّلة الخفية من وراء النوافذ المغلقة، تَرى ولا تُرى، تقيم وتزن وتحكم من جانب واحد، وهم تحت رحمة مجهولها لا عِلْم لهم بما يَروق أو يُسخِط، بما يفتح الأبواب أو يُغلقها، بما يُقرِّب أو يُبعِد. وهي وفدت إلى الحارة في وقت استقر فيه زحل في برج الحظ المائل، فأرسل نحسه ليغمر القاصي والداني. ثقلت الأرواح ففقدت خفة مرحها، وصمَّت الآذان عن سماع الغناء، وجفَّت القلوب فتلاشت خفقة الحب والحنان، ومضت الشمس تُشرِق وتَغرُب والقمر يسطَع ويأفُل، فلا يظفر بمن يدهش أو يفرح أو يتذكر، ولكن احتدم البيع والشراء وتناطح الربح والخسران، وتوالى الملء والتفريغ، وكثر الغش والحلف بالطلاق، والحج لعقد الصفقات والزواج لتأمين الدعارة، واندلاع الخصومات لأتفه الأسباب، حتى حارَ من أمره ينسون، الشاب المجهول الأب النحيل الجسم ذو قلب الطفل ووجه العذراء، ما بال أحد لا يداعبه أو يعطف عليه كالأيام الماضية؟ ما زال سقَّاء الحارة يطوف على البيوت بالقِرَب ولا يجد عند المساء من يلهو معه أو يَطرَب لصوته إذا غنَّى. وفدت إلى الحارة وهي على تلك الحال، فما فعل مجيئها إلا أن أرَّث الطمع وهيَّج الجشع وقدح زناد الهدم والتخريب. وقال مدَّعو الحكمة: إن امرأةً هذا حالها لا تُفرِّط في الوقف من أجل الشرع، ولكنها في النهاية تمهِّد فراشها للزنا لصاحب القسمة والنصيب؛ فيفوز بالحب والمال معًا. وفي الليالي الساهرة التي يحتفلون فيها بالصفقات الرابحة تنهزم جحافل الليل أمام أضواء الكلوبات، وتغصُّ الأرض بالجماهير، وتزدحم الأبواب والنوافذ بالنساء. وترتسم هامتها وراء خِصاص النافذة فتنبض العروق بالحماس، ويثمل بالنشوة السكارى والمفيقون، فيتبارون في الرقص والمصارعة والمزاح، يقدمونها قرابين تحت النافذة؛ استثارة للرغبات الكامنة وتمهيدًا للاقتحام. ويراقب شيخ الحارة ما يجري بعين تطفح بالكآبة،

فيحدس قلبه المتاعب المقبلة في طيات السُّحب، ولم يجد من يحاوره إلا ينسون المستقر في رحاب الطيبة والأسى، فيقول له: لا يتذكرون قتلى أسلافهم يا ينسون.

فيسأله الفتى الذي سعد بإقباله: كيف قُتلوا يا شيخنا؟

فيقول ماضغًا مرارة الذكرى: لأتفه الأسباب، يا ينسون.

ومضت أيام ذاك الشتاء العاتي، دون أن تصيب شهوة مرماها، فانفجر غضب الكبرياء في القلوب المحتدمة بالضجر، وتمخَّضت ليالي الغُرَز عن مكيدة، فاختفت أم طاهر هاجرةً خدمة السيدة الوحيدة، وتعهَّدت مالكة البيت بالامتناع عن تقديم أي مساعدة للجميلة المتوارية. دبَّروا ذلك ليُجبروا المرأة على الظهور والمشي في السوق، ثم يكون بعد ذلك ما يكون. ولم تكن المكيدة مما يتفق مع تقاليد الحارة وشهامتها الموروثة، ولكنها لم تنبُ عن ذوقها الذي اكتسبته أخيرًا في دوَّامة الأعاصير الجارية، ووعدت الجميع بإشباع نهمهم ودغدغة غرائزهم، وتحقيق أخيلتهم المحمومة. ولم تشغلهم أعمالهم عن التربص بالمسكن المغلق. عما قليل ستهلُّ عليهم بقامتها المشوقة، كاشفة عن ذاتها، ويتهادى إلى الآذان صوتها الناعم. وباقتراب اللحظة المترقبة اضطرمت المنافسة في الأعماق، وتوتَّرت العلاقات، واندلع الاستفزاز في المحاجر، فأنذر بأوخم العواقب. مَنَّى كلٌّ نفسه بها، ورأى ذاته في مرآة الوجود الأجدرَ والأحقَّ بملكيتها شرعًا أو سفاحًا. وتوثب شيخ الحارة للعمل ولكن الأحداث لم تُمهله، فنشِبت معارك وحشية، كلما سد ثغرة انفتقت ثغرة، وتعرَّت الأنفس بلا حياء. وجمع الشيخ عزيمته ومضى إلى البيت، وطرق باب الست. ومن وراء شرَّاعة الباب المواربة قال: أنا شيخ الحارة.

فجاءه صوتٌ غاية في العذوبة وهو يقول: انتظرتك من أول يوم!

– عظيم، ماذا ترين حلًّا لهذه الوحلة؟

فقالت بعتاب: ظننتك قادمًا بالحل!

– الوحش انطلق بلا رادع، ولن يرجعه إلى قفصه إلا أن تذهبي بسلام.

فقالت بأسًى: جئت هربًا من هذا الوحش!

فتفكر قليلًا ثم قال: اختاري أحدهم.

فقالت بازدراء: لا خيار بين هؤلاء الحُقراء.

– منهم من يُعَدُّ من أغنى الأغنياء.

– ليس المال ما ينقصني.

– ستخرجين اليوم أو غدًا إلى حارتهم.

– لم أعتَدِ الجوَلان في الطرقات.

– لن يسعى إليكِ الطعام على قدمين؟

فصمتتْ مليًّا ثم قالت: يا شيخ الحارة، أرسِل إليَّ الفتى ينسون!

فهتف الرجل ذاهلًا: ينسون؟!

فقالت بهدوء: نعم. إنه يصلح للخدمة.

– سيغرونه بهجرك كما فعلوا مع أم طاهر وصاحبة البيت!

– قلبي يحدثني بخلاف ذلك.

– أخاف عليه سوء العاقبة.

– أرسله، ودَعِ الأمر لي.

وانتبه الرجال، فإذا ينسون يعمل في خدمة السيدة الجميلة. يذهب ويجيء في طمأنينة الغافل عن النُّذُر المُحدِقة به. وتغير منظره. خطر في جلباب صوفي وطاقية بيضاء ومركوب أحمر. وفي حمَّام السلطان تجلَّى لونه الحقيقي لأول مرة. وثبت لكلِّ ذي عين أنَّ له شبابًا ورونقًا. وتفاقمت الشائعات المُغرضة عن العلاقة بينه وبين كوثر هانم. ولم تنهزم المرأة، ولكنها تحدَّت الجميع بإرادة لم تجرِ لأحد في بالٍ. استدعت المأذون في رابعة النهار، وأتت — من بين معارف أسرتها — بشاهدينِ خطيرينِ، حمل حضورهما معها فصل الخطاب، هما شيخ الأزهر ومدير الأمن العام، وقالت المرأة لشيخ الحارة: ضحيت بنصيبي في وقف النقيب قانعةً بالحب والأمان، ومدَّخَر من المال يكفي لبدء حياة جديدة.

وحتى اليوم أتذكر هذه الحكاية كأسطورة من أساطير الصِّبا، ولكني أتذكر أيضًا أن أبي أقسم لي مرة أنها حكاية حقيقية، وأنه عاصرها على عهد شبابه المُولِّي.

في أثَر السيدة الجميلة

ذات صباح مبكِّر دافئ صادفتها عند منعطف البرج، وليس في الطريق غيرنا سوى الكنَّاس. كنت قادمًا من المنعطف من ناحية، وهي قادمة من الناحية المقابلة وبيننا أشعة الشمس المشرقة تحبو فوق الأرض الخضراء.

ألقيت نظرة عابرة فشُدَّت بقوة باهرة؛ لتستقر فوق صفحة وجه ذات مواصفات خاصة لا جدوى من وصفها. الجميلات كثيرات، ولكنَّ إحداهن تُخصُّ بميزة سرِّية يتسلَّل منها إلى قلب ما نداءٌ مبهم لا يقاوَم. قوته الحقيقية في الأمر الصادر منه، وقوته الحقيقية أيضًا في الاستجابة الحارَّة إليه التي لا تفسير لها. من أجل ذلك وقعتُ أسيرًا بلا معركة، أو من خلال معركة لم أشعر بها قط. انشرح صدري بقوة عجيبة، واستسلم قلبي بلا قيد أو شرط، كأنها غاية الدنيا وثمرتها النهائية، هي ما أريد، وما تعلو على جميع ما تَعِدُ به الدنيا من جاهٍ ومال وسعادة. ونسيت شواغلي جملة، وهموم اليوم والغد، وما كنت ماضيًا لأؤديه مما يمتُّ بصلة لأسرتي أو عملي. تلاشى كل شيء، ولم يبقَ إلا هذه الصورة العذبة المتوَّجة لجسم رشيق يمضي بها في مشية معتدلة هادفة على مبعدة أمتار، وأنا في أثرها مركِّز الوعي في حركتها اللدنة المتتابعة. وهالني وأثقل مهمتي هالة الجدِّيَّة التي تكسوها، ورصانة الخطو التي تحملها بعيدًا عن ألفة المرح وأمل القرب. تُرى ماذا أبغي؟

ولكنني أبغي شيئًا محددًا ولا أملك خطة واضحة. المسألة بكل بساطة أنني عاجز عن الانفصال عنها مهما تكن العواقب.

إنه أمر خطير في الواقع. ليس لهوًا ولا عبثًا، ولكنه فقدان كامل للذات، واندفاع أهوَجُ في سبيل جديد لم يلِجْ من قبل في جدول أعمالي. ضعت بالطول والعرض، وأصبح الماضي كله في خبر كان. وبعد مسيرة دقائق مالت الفتاة — أو المرأة — إلى المستشفى، ودخلت فواصلت سيري أمتارًا ثم توقفت تحت شجرة. أتعمل في المستشفى أم تعود مريضًا؟

لم أفكر في الذهاب على أي حال، ولا في التخلي عن أن أكون ظِلًّا لها.

وتذكرت في فترة الانتظار حريتي، وبأنه لا يمكن إرجاع الزمن خطوة والإفاقة من هذه السَّكرة الغامرة؟!

ومن شدة شعوري بالأَسْر دعوت إرادتي أن تمدني بالرعاية الواجبة، ووردت على ذاكرتي تجربة سابقة متشابهة، ولكنها بعيدة عن التطابق.

ثمة سحر كان، نفثته نظرة ساجية تحت ظلال حاجبين مقرونين وفترة جنون طال وفعل بي ما لا يُقال، ولكن التجربة الجديدة، رغم ذلك، جديدة تمامًا وغير مسبوقة بنوعها، ولا تبدو القديمة بالقياس إليها إلا «بروفة» باهتة. ومر وقت ثقيل قبل أن تُغادر المستشفى مقبلة نحو موقفي ماضية في طريقها. ولدى مرورها بي تلقيت نظرة عابرة، فلم أدرِ إن كانت تذكَّرَتني أم لا، وذهبتْ مجلَّلة بجدِّيَّتها ومناعتها وفِتنتها الغامضة، ساحبةً إياي وراءها.

وانقضَت حوالي نصف ساعة قبل أن يتراءى لنا ميدان التحرير. وصاحبني تساؤل دائم عن جدوى إصراري أو معناه أو الهدف منه، ولكنه لم يقلل من حدة نشاطي المندفع. وساورتني احتمالات ممكنة كأن تستقل سيارة فتغيب عن أفقي، ولكنني لم أنثنِ عن السير. وأظنها على علم ما بمتابعتها، ولكنها لم تُبدِ عن أي ردة فعل، فضلًا عن أنها لا يعتريها تعب أو ضجر. وقلت لنفسي: إن محاولة التعارف خطوة لا بأس بها، وربما تمخَّضت عن جديد، وهي على أي حال خيرٌ من السير الأخرس. وأسرعت لألحق بها، وهمَمْت بالكلام عندما أقبل نحوها رجلٌ قوي البنيان فخم المنظر، وهو يهتف متهللًا: أشرقت الأنوار.

تصافحا بحرارة، فواصلتُ السير حتى وجدت مأوًى قريبًا وراء حجرة تفتيش كهربائية. وراقبت انهماكهما في حديث غير مسموع. وأشار الرجل إلى محل «باباز»، فمضت برفقته إليه ثم اختفيا داخله.

أنْتظِرُ أم أدخُل؟

لبثت فترة تمزُّق وحيرة، ثم اقتحمتُ المحل كأنما أبحث عن شخص ما. وجعلت أجول في الأركان ببصري، فرأيتهما جالسَين حول مائدة، أمامها زجاجة بيبسي، وأمامه فنجان قهوة وهو باسط أمامه صفحة يتلوها بعناية، وتبادلا حديثًا حول التلاوة، في الغالب. فدوَّن الرجل بعض الملاحظات، ثم صفق داعيًا الجرسون فأسرعتُ إلى الانتظار في الخارج وخرجا في أعقابي، فتصافحا أمام المحل، أما الرجل فرجع إلى الداخل، وأما المرأة فسارت نحو شارع خيري، وفي الحال تحركتُ في خَطِّي المرسوم.

وبعد مسيرة دقائق انحرفتْ نحو دكان ساعاتي، فوقفتُ تحت شجرة مستقبلًا حرارة متصاعدة وأصواتًا متضاربة، وزحمة تنقضُّ ما بين مركبات وآدميين، وكأنما الدنيا تقذف بأناسها وآلامها من كافة الأنواع والأشكال.

وغادرَتِ المحل بعد ربع ساعة، فتواصلت المطاردة المحمومة الخفيَّة.

كيف يتأتى لي أن أهمس في أذنها بما أريد وسط هذا الانفجار الآدمي الآلي الذي يتعاظم بين دقيقة وأخرى تلهبه أشعة الشمس والأنفاس الحارة؟ رأيتها تتَّجه نحو «البنك الأهلي» وتغوص داخله، فتوقفت في ضيق شديد، ثم دخلتُ وراءها متعللًا بفكِّ ورقة مالية. لمحتها تقف أمام شباك لعله لصرف الشيكات، ثم تقف جنب أريكة مكتظَّة تنتظر. ولبثت واقفًا، ولكنني خفت أن أثير ريبة فذهبت خارجًا، وانتظرت أمام بيَّاع جرائد ومطبوعات، رحت أتفحصها وأراقب باب البنك في الوقت ذاته. حتى متى أستطيع اتقاء الشعور بالتعب؟

ها هو الوقت يمضي في توتُّر أعصاب وتصلب عضلات. ثم تلوح في باب البنك بشموخها الفطري، فيخفق فؤادي بارتياح عابر عميق. أتبعها متجدِّد النشاط متحيِّن الفرصة للالتحام بها، ومهما كلفني ذلك من مخاطرة. ولكنها مالت إلى السنترال. هذا مكان لا يثير الوجود فيه تساؤلًا أو ريبة. دخلتُ بجرأة، وانتظرت قريبًا من المدخل أتابع سعيها لطلب رَقْم ما. وسمعت العاملة وهي تقول لها «رقم ١١»، رأيتها وهي تدخل المقصورة وتسحب الباب خلفها. تُرى ألم يُفتن بها سواي؟ أي قضاء قُضِي به عليَّ هذا الصباح؟ ثمة تعب خفيف بدأ دبيبه في ساقيَّ، وهناك شبح الإحباط أيضًا. وظل الشك المؤرق. ويوجد أيضًا شعور قائم بتفاهة كلِّ شيء خارج نطاق المغامرة المجنونة. ها هي خارجة من المقصورة بوجه مورَّد بالرضا. تحرَّكْ .. تحرَّكْ .. لا يجوز التراجع بعد ما كان.

لعلها نسِيَتني تمامًا ولكن لا محيد عن السير، بلغ رِكابنا شارع طلعت حرب، فبلغ الزحام والحر أشده. ولا فرصة البتة للمناورة. أسبقها مرَّة وأتأخر عنها أكثر الوقت؛ لعلها تتذكر رجل البرج. لم أتمكن من قراءة أصابعها أهي متزوِّجة؟ مخطوبة؟ حرة؟ وصادفتها امرأة من معارفها فانتحيتا جانبًا، وتوقفتُ مائلًا نحو باب عمارة. ما أجمل ابتسامتها وأرشق إشارتها! وانتهى اللقاء فواصلتْ سيرها مارةً أمامي، لمحتني ما في ذلك شك. وكردٍّ على ذلك زادت من سرعتها ومن جدِّيَّتها. وأعود للتساؤل عن معنى ذلك. ولكن لا حيلة للعقل في الموضوع كله. أو لعله يقرِّني على سلوكي طالما أجد فيه أملًا أو سعادة. يقول لي: استمر إذا شئت، ولكن لا تتورط في خطأ. وأصبح الشعور بالتعب واضحًا. وعرَّجتْ إلى شارع البورصة المكتظ بالسيارات الواقفة على جانبيه. ويقل الزحام هنا لدرجة تُغري بالجرأة. ودون تردد أحث الخطى حتى أحاذيها فوق الطوار.

أنظر نحوها، فتتلقَّى نظرتي بعين متحفزة. أقول: هل ...

ولكنها تقاطعني بصرامة: احترمْ نفسك.

– أود أن أتشرَّف.

ولكنها لم تسمعني غالبًا؛ لاندفاعها إلى الأمام. إنه رفضٌ صادق. تكاثف الإحباط والشعور بالتعب.

يجب أن أعدل عن مطاردة عقيمة، لكنني لم أستطع. إنه حكم مؤبد فيما بدا. ورأيتها تدخل مكتبة الفجر الجديد. دخلتُ وراءها مطمئنًّا كما دخلت السنترال، ورحت أُقلِّب عيني في الكتب وأسترق النظر.

امتدت يدها البضة القمحية إلى كتاب «القوى الخفية». ابتسمتُ رغم القهر، وتناولتُ نسخة تحية لها. ثم تبعتها إلى الخارج كالمنوَّم. ودخلنا أيضًا صيدلية، واضطررت إلى ابتياع حُق أسبرين. بدأت قدماي تشكوان. توسطت الشمسُ السماء. عجبت لطول ما انقضى من النهار. ولم أجد أمامي إلا الحظ فلَعَنْته وتساءلت: على وجه مَن أصبحت اليوم؟ وعبرتني عتمة الهواجس، فلم أدرِ كيف وصلنا إلى شارع التحرير. ورأيتها ماضية نحو مطعم «الشامي»، فسرعان ما نهشني الجوع. وبجرأة اخترت مائدة مقابلة لها. ودون مبالاة غادرتْ مائدتها إلى أخرى في أعماق المحل. صفعة متوقعة على أي حال. وأمرتْ بطبق شاورمة مع السلطة الخضراء، وختمتْ بفنجان قهوة. وأنا أرقب مدخل المحل بعناية وغمرتني رغبة في الاستلقاء، وعلى عكس ما قدَّرت استفحل إحساسي بالتعب. ولما رأيتها تتهادى خارجة قمت من فوري فتبعتها. وتريَّثتْ أمام محل أثاث لترى في مرآةٍ معروضةٍ الطريقَ وراءها. ورأتني بلا شك، وواصلت سيرها في هالة تنطق بالغضب والاحتجاج. وصدَرت إليها إشارات من سيارات عابرة تدعوها للركوب، فتجاهلَتْها ومضتْ في شموخ مَنيع. المصيبة أنها لا تكل ولا تمل ولا توحي بقصد هدف محدد. على الأقل هي تعلم، أما أنا فلا أعلم، وحتى اليأس القاطع تمنَّيته. وعثرت بشيء فوق الطوار فكدت أفقد توازني، وارتطمت برَجُل قذفني بجملة كالطعنة: «فتَّحْ عينك.» وانضاف إلى الإرهاق العام إحساس بالظمأ ورغبة في إفراغ المثانة، وبألم نصفي في الرأس. وثمة تساؤل مقلق: هَبْها استجابت، فماذا عندي لأقدِّمه؟ لماذا يتمادى فيَّ الجنون بلا طائل؟ ورأيتها تتجه نحو حديقة «لبتون»، فتجدد أمل مُبهم. ووجدتها تمضي إلى مائدة عامرة بالرجال والنساء، وتُستقبل بمناورة بالغة. آثرت في الحال أن أنتظر في الخارج لشدة الزحام، ولكن حتى متى أنتظر؟ ما بي قوة، والصبر يتلاشى بسرعة. وتذكرت العمل الذي كان عليَّ أداؤه والمواعيد التي أخلفتها،

والرسائل التي كان عليَّ تحريرها. ولكن ما جدوى الندم؟ واشتد ضغط المثانة، جُلْت بنظرة زائغة، اقتربت من سيارة واقفة. انهارت قوى المقاومة. استسلمت وأنا أتلفَّت. وعندما أخذت أُزرِّر البنطلون غمَرَني ظل رجل طويل، مكفهر الوجه، صاح: على السيارة يا وقح!

رمقته بعين خجول معتذرة، ولكنه دفعني بغضب فترنحت فاقدًا صوابي، وبغير تقدير للأمر لطمته، فما كان منه إلا أن انهال عليَّ ضربًا، حتى تركني على أسوأ حال. جعلت أمسح وجهي بمنديل وأُجفف به دمًا سال من أنفي، ثم أُسوي رباط الرقبة والسترة. أصبح منظري زريًّا، وتضاعف تعبي وضعفي. عليَّ الآن أن أذهب بلا تردُّد، غير أنني لم أتحرك. حملت تعاستي ووقفت على ساقين تئنَّان من التوجع. ما زلت أنتظر وأُناجي جنوني البيِّن. وتهادت إلى سمعي أغنية «الزهر في الروض ابتسم»، فتابعتها بأسًى لا يناسب معانيها بحال. وخطر ببالي بيت أبي العلاء:

فسلم إلى الله ربك   فكل ما جاءك من عنده

غير أنني فكَّرت في اغتيال الرجل الذي انهال عليَّ ضربًا، ولعلها أنسب نهاية لرحلة سخيفة عقيمة لا معنى لها. وانتبهت منزعجًا إلى ما حولي، وأنا أرى نُذُر المغيب تحدث بالوجود وتطوق جسدي الذي أنهكه السير وهاضَتْه اللكمات. ولأول مرة أفكر جادًّا في الإقلاع عن جنوني والرجوع من خيبتي القوية.

وهممت بالتحرك عندما رأيتها تغادر مدخل الحديقة وحدها، وتتجه بخطوات ثابتة نحو شارع الشيخ ريحان. توهَّج الأمل من جديد في قلبي الذابل، وتناسيت هواجسي وتبعتها وأنا أجُر نفسي جرًّا، وأُحِدُّ من بصري المنجذب إلى ظهرها لتكاثف العتمة. وقُبيل نهاية الشارع بقليل فقدت ذاتي بغتة. لم أُدرك قبل مرور ثوانٍ أنني سقطت في حفرة. زُلزلت مفاصلي، وفغمت خياشيمي رائحةٌ ترابية عميقة لم أعهدها من قبل. ولم يبقَ مني على السطح إلا عنقي ورأسي. حاولت الخروج ولكن خذلتني قواي الخائرة.

وأرسل عينيَّ صوب المرأة بآخر ما أملك من طاقة على اللهفة، فلا أعثر لها على أثر. أفلتت إرادتي وأشواقي، وهيهات أن ألحق بها! الأمر يقتضي معجزة إن يكُن ثمة مجال للمعجزات.

وانتظرت أن يقترب مني عابر سبيل لأستنجد به. وبلغ مني الإعياء غايته، فأسندت رأسي إلى حافَة الحفرة مستسلمًا إلى قدري.

السَّيد «س»

عبثًا أحاول تذكر حياتي في مجراها المفعم بالوجود قبل ساعة الميلاد. تلك النبضة المنبثقة من تلاقي جرثومة متوترة ببويضة متلهِّفة في أول مأوًى آمنٍ يُتاح لي. في أي غيب كنت أهيم قبل ذلك منطلقًا مع تيار متصل غير محدود من الذكور والإناث، تشارك في مهرجانه قُوًى عديدة من النبات والحيوان وعناصر الطبيعة من ماء وتراب وحرارة وبرودة، في تناغُم مع دورة الأرض والقمر والشمس في حضن درب التبَّانة العظيم الماضي في حوار دائم مع دروب لا نهاية لها. لعل إشارات من ذلك الغيب تتجلى في أحلامي في صور أفراح غامضة وكوابيس ثقيلة، سرعان ما تتلاشى في كون النسيان العنيد، مُخلِّفة في النفس قلقًا يتلاطم مع الواقع الصلد، ناشرًا تساؤلات عديدة، ودعوات مغرية للرقص والتنقيب. وأما كهنة آمون؛ فقد أخفوا أسرارهم. وأما كهنة الهند؛ فقد أعلنوا سيطرتهم على مسيرة الماء البشري منذ أقدم العصور، ولكن لا سبيل إلى اليقين في هذه المسألة، ولو سلمت برأيهم لتعذر عليَّ معرفة الخطيئة التي ارتكبتها في زمن سحيق، والتي يكفِّر عنها شخصي الراهن بمعاناته المستمرة التي لا يجد لها تفسيرًا. فلنؤجِّل القول في ذلك إلى حينه، ولنُلقِ نظرة على يوم الميلاد. إنه يوم تخفق له أفئدة البشر وتحوطه بالبركات من خلال طقوس أبديَّة. يجيء المخاض على أنغام أهازيج شجيَّة، تنطرح المرأة على الفراش في جوٍّ مضمَّخ بأنفاس الخلق، ترعاها يد الخبرة، وتحدِّق بها القلوب المترَعة بالأشواق، هامسة بالإشفاق داعية بالسلامة، مترقِّبة إذن يد العناية بالفرج، مسبِّحة للخالق، منتظرة بين آونة وأخرى أن تنجاب الدماء الحارَّة والأنفاس المتلاحقة عن صرخة حياة جديدة، مكلَّلة بالظفَر، في لحظة صراع محتدم مع الموت المقدس. ومن حسن الطالع أن الأشهر التسعة المنقضية في الظلمات لم تتلاشَ في العدم، حفِظَتْها من الضياع ذاكرة خاصة غير الذاكرة المرصودة للحياة اليومية. سجَّلت حياة النطفة المزهوة بتوحدها كما سجلت تحولها إلى

علَقة. وعليه فلم يندثر تقلُّبها بين السرور والألم، وما تلقَّت من انبساط وانقباض، من راحة وتوتر، من رضًا وسخط، وما واكب نشأة العظام من اضطراب، واستقبال اللحم بنشوة سانحة. أما المخ والوعي فقد أضفيا جديَّة جاوزت حدود المقام. أصبح الغذاء من هموم الحياة اليومية، والفضاء غير المحدود مدعاة للتأمل، والزمن عبئًا لا يُستهان به، حتى متى يستمر ذلك؟ وما معنى هذه الحياة؟ ولكن تغير الأمر عند اقتراب الفترة من نهايتها، وما زامل ذلك من إحساس بالشيخوخة. فلن يهوِّن أبدًا الرحيل إلى المجهول، أهو العدم؟ أثمة حياة أخرى؟ ويأبى العقل أن يصدق ذلك أو يتعلق بأمل مخادع، وما هي إلا خدعة سخيفة لا معنى لها. وما إن تلقَّفَتْني يد الدنيا حتى مُحي الماضي محوًا تامًّا فكأنه لم يكن. هنا ينقض الضوء والطقس والأنفاس والأصوات ويعلو البكاء لأول مرة. وتمر فترة لا أمان فيها، وكأنني أهوي في فراغ، ويمر دهر حتى أُلَفَّ في الأقمطة، وكأنما رجعت إلى موطني المنسيِّ. وينسكب الدفء فيَّ، ويحتويني حضن ستبقى ذكراه معي طويلًا. وتمر فترة يتذكَّرُها الحالمون جنة وارفة متناسين متاعبها وأشجانها، من افتقاد الأمان والشبع أحيانًا، واقتحام صوت مزعج أو مداعبة قاسية، ورضع الحزن مع لبن أم لا تصفو لها الحياة دائمًا، وغزو أمراض عدة تفسد مذاق الحياة. ثم تتطفل الحضارة بثقلها لتصب الوافد الجديد في قالب مهذب، يسيطر فيه على أجهزته المختلفة، ويتعلم المشي والكلام، ويُستعان على ذلك بالحوافز والردع. ولا بأس بالزجر بل والضرب، وتلوح السعادة كخيال لا يتحقق أبدًا. وما إن يقوم على رِجْلين، وربما قبل ذلك، حتى يلحق به آخر، فيشعر شعورًا خفيًّا بأنه أصبح موضة قديمة، وأنه يُدفع دفعًا إلى دخول عالم جديد هو عالم التربية الواعية الهادفة. ويتناسى الجاحدون عهده، ويفكرون في طريقة مهذبة للتخلص منه، فيعرِّفونه بالله، بجحيمه قبل جنَّته، وشياطينه قبل ملائكته، فلم أُدرك مزايا الجنة ولكني ارتعدت أمام رعب الجحيم. ولم أتذوَّق حلاوة الملائكة ولكني تجرَّعت غُصص الشياطين، وأحدَقَ بي عالَم منذِر بالولايات. وأَلِفْت النَّهْر والصَّفع واللعن والعصا. وبذلت قُصارى جَهدي لأنعم بأبسط المطالب وأتفادى من العدوان، وأُحمَل ذات يوم إلى المدرسة فأضيف إلى عذاب الأهل عذاب الأغراب. وأتساءل أي حياة هذه؟ وهل لو كنت خُيرت كنت اخترتها؟ وإنه لمَّا يبعث على الضحك أن أتذكَّر تلك الفترة في زمن قادم باعتبارها الفردوس المفقود. ولكن مهلًا! فلعل هذا الحكم لا يخلو من صدق، فما خلا يوم من ضحكة صافية أو لعبة جديدة، أو هيام عذب بأصحاب ومواسم وحلوى وسينما وغناء، بالإضافة إلى ساعات صفو وهناء في رحاب الأسرة. وحتى في أشد حالات

الضيق، هناك الخيال ألوذ به فيرحل بي إلى عوالم غريبة، ويخلق الحياة في الجماد، ويُبدع الحكايات، ويتلقى من الوجود صورًا للأشياء والنساء والرجال، والعلاقات سينضجها الزمن ويحوِّلها إلى معانٍ ما كانت تخطر بالبال. وبفضل ذلك كله أتدرب على تمثيل أدوار لم يَأْنَ زمانها بعد، فأقوم برحلات إلى بلاد الواق الواق، وأخوض معارك ضارية، وأتزوج، وأُتاجر وأربح أموالًا طائلة. وأصلي وأصوم فأضمن الجنة. ولكن أيضًا أتشاجر فيُشَج رأسي، وأعشق قريبة تكبرني بعشرة أعوام، وأتحايل لأُغوِيَها فآكل علقة مناسبة. مَن علَّمك هذا الكلام يا ولد؟ خبر أسود. وأنت في البيضة، وأتوسل إليها دامع العين بألا تشكوني إلى أمي. ولكن مَن علَّمك ذلك؟ في السينما رأيت أشياء، ومن شباك بدروم جارتنا الفقيرة رأيت أيضًا، ألا تعرف جزاء من يتلصَّص على الناس؟ توبة .. توبة. ولا تتاح النجاة حتى أوافق على حمل رسالة سرية منها إلى أخي! ويجد جديد، فتحصل أمور، وتلوح أعراض، ويتكلم مُدَّعو الحكمة من الأصحاب، إنه البلوغ. الشعر لا ينبت لغير ما سبب، والصوت لا يخشوشن لمجرد التغيير، وتمتلئ النظرات البريئة بدماء الغرض والهوى، وتحل بالبدن قوة مجهولة ماكرة غادرة، تضغطه بدغدغة حادَّة، وتسكب في الشرايين نارًا، يستهين بزواجر الجحيم ونواهيه، يحول بيني وبين الله والطاعة والعهود، ولم تعد الأشياء هي الأشياء، ولكنها تنقلب موضوعات للرغبة والحلم والسطو ومرتعًا للخيال النهِم. وربما تحصل أمور من نوع آخر وفي نفس الوقت، كردَّة فعل، وتفكير حادٌّ يُروي ظمأه من ندى السحاب الأبيض المشغوف بالتعالي، فيخفق القلب خفقة لم يخفق مثلها مذ كان فكرة هائمة في عالَم الغيب، ويستوي الحب أمامه كنجمة متألقةٍ في سماء مكفهرة، تحوطه العناية الملائكية وتسبح في السماوات السبع، تمطر وابلًا من الأفراح والآلام، فتنبت في الأرض أزهارًا وأنغامًا، وتستجيب للغة خفيَّة. فتثب هنا وهناك وراء المستحيل، في عالم مسحور فيه كل شيء إلا الأمل، مُجِدَّة وراء موسيقى الكلمات وحُمرة أوراق الورد، وفضِّيَّة شعاع القمر وحكمة صمت الموت. وبعد عناء طويل يجيء الشك على غير ميعاد، ملوِّحًا بسياطٍ محمَّلة أطرافها بالرصاص، كلما ألهبته تحدى العُرف والأب والأم وأركان المعبد. وبشيء من التردُّد يرمي بنفسه في بئر الجنون الأحمر، وينهل من شراب مزاجه الشهد والسم، ليمحق المكر والخداع، بإشباعه حتى الموت، وتركه جثةً من الخمود والأسى. هكذا .. هكذا .. هكذا. وبوحي من حظٍّ حسن تتراءى مرآة عاكسة للزمن بلا حلم أو خيال. كان من الممكن أن يحدث غير ذلك، فما هي إلا احتمالات تطاول احتمالات، ولكلٍّ قصته. من أجل ذلك تمتلئ المدارس والمعاهد وتمتلئ السجون. وأمضي

في سبيلي طاويًا ذكرياتي في زاوية أرجو لها النسيان. أصبحت كائنًا جادًّا، أُحيِّي الأهل صباحًا والأصحاب مساءً، وأتلقى في اهتمام بالغ حظي من تراث البشر وخبرتهم. وتهل علينا متاعب من نوع جديد. ما رأيك؟ هذا الدرس يتطلب عمرًا لإتقانه. أجل .. وهناك أيضًا الأزمة الجديدة، صدقت ونحن مدعوُّون غدًا لاجتماع هام، صدِّقْني لا مناص من أن يذهب هذا الجيل كله إلا الجحيم. وماذا عن مستقبلنا نحن؟ لا شيء يُعادل ما نبذل من جهد. ورغم كل شيء تبدأ الحياة العملية متعثرة محدودة الأمل، محفوفة بحياة سياسية غاية في القلق والاضطراب، وحياة جنسية لا تقل عنها قلقًا واضطرابًا. وتتعدد الطرق هنا أيضًا. كان يمكن بشيء من الانتهازية أن يُقبل وجه أكثر إشراقًا وأقل جدارة. وكان يمكن التمادي في التجارب المُرة حيث يفضي الطريق إلى السجن أو الصعلكة. ولكنْ قادَتْنا الرغبة الحميمة في البقاء إلى الرشد المتواضع، فاستقررنا فوق كرسي الروتين تحت مظلة من نسيج العنكبوت، ورضينا بلون تقليدي من الحب أفضى بنا إلى نوع تقليدي من الزواج، ورحنا نَعْبر الجسر الذي عبره قبلنا الملايين، نعمل بلا حماس، ونشهد بعين الأسى تبلُّد عواطفنا ونقار الأُسَر النامية وصراع الجنسين المعروف، وتطوف بنا مسرات لا يستهان بها، مثل الأبوة الدافئة، وانتصارات صغيرة تتحقق برضا المدير، أو نجاح نكتة مكشوفة أو كسب عشرة طاولة وإحراز فوز سياسي مؤقَّت، وهكذا .. وهكذا .. وهكذا. ونصحو ذات عيد ميلاد فإذا بالشباب قد ولى وصمتت أهازيجُه، وجاء عصر العقل مصحوبًا بالعناء الاقتصادي، والدروس الخصوصية، وجزية الطب والدواء، والشجار لأتفه الأسباب، والبكاء على الأطلال، وارتفاع ضغط الدم لأول مرة، وأكثر من جراحة إجهاض تحت شعار تنظيم الأسرة، وإقبال شركة التأمينات مشكورة للمشاركة في الرزق المحدود. ويحفل سيرك الأبناء بألعابه المتنوعة، فهذا ابنٌ يهيم في ملعب الكرة، ويرتكب الثاني حماقة كادت تُغرق السفينة كلها، أما الثالث فقد استبدل بإله الآباء والأجداد خواجا غَيَّر مفهوم اللغة، وأخيرًا فقد أطلق الرابع لحيته، وقذف الجميع بتهمة الكفر. وانهالت عليَّ التُّهَم من كل جانب، رجعي .. جاهل .. تقليدي .. كافر. ونفَّست شريكتي عن بلواها بتحميلي مسئولية كل شيء، نتيجة التدليل والدلع، ربنا يعاقبك على أنانيتك وزيغان عينك وسوء معاملتك لي. ولم أصدق أذنيَّ، ورحت أذكر بأغاني عبد الوهاب في ضوء القمر على شاطئ النيل، والسعي المرهق لاختيار هديَّة إحياء لذكرى الزواج، وسهر الليالي إلى جنب فراش المرض. رغم ذلك كله سارت القافلة بسلام على قدر الإمكان. ارتفعتُ درجة بعد درجة وكبر المرتب وتغير المكتب والحجرة، ولولا الغلاء المتصاعد وهزائم الحروب المتعاقبة لمضيتُ برأس

مرفوع مكلَّل بهالة روتينية وشمخة بيروقراطية. ولكن ذُل الحاجة والتورط في الأعمال الإضافية خرق للائحة. ومعاناة الأبناء ومرارة شكواهم من قلة المصروف، كل أولئك أطفأ مشاعل المجد وأحل روح التسول مكان زهو العظمة. حتى الخادم اضطُررنا للاستغناء عنها أو أنها بالحرى استغنت هي عنا. ولم أجد إلا المواعظ أُلقيها يمنة ويسرة، لا خيار فإما النجاح وإما الموت، الترف من سوء الخُلق، أعرضوا عن الدنيا تُقبل عليكم، سيدنا محمد عاش على التمر واللبن، وسيدنا عمر تغير لونه من أكل الزيت، والدولة الرومانية سقطت لانغماسها في مطالب الجسد، كذلك الدولة الإسلامية. ويردُّون عليَّ ومعهم أمهم: ألقِ مواعيظك على الحُكام، على أصحاب الملايين، على اللصوص والخطَّافين والطُّفَيليين، نحن نريد لقمة وبدلة وأقلَّ مصروف معقول، أي مدير أنت؟ ما جدوى خدمتك الطويلة في حكومة لا ترعى حقها لموظفيها، تُنفق على الحفلات بغير حساب، وتضن عليكم بالمليم. وأتساءل ما العمل؟ يجب ألا تتوقف حياتنا وإلا ضعنا. الأسهل أن ندبر حياتنا في حدودنا المتاحة من أن نحاسب الحُكام والمسئولين، ونعرض أنفسنا لمخالبهم الحادة المفترسة، ألا ترونهم يرمون أعداءهم بالإلحاد دفاعًا عن غنائمهم، فإذا قامت ثورة إسلامية تنمروا لها وللإسلام دفاعًا عن غنائمهم؟! فلا الإسلام يهمهم ولا الإلحاد، ولا يعبدون إلا المال والجاه، وأنا رجل ضعيف، بدأ الشيب زحفَه إلى شعري قُبيل الأوان، ولا غاية لي في دنياي إلا أن أبلغ بكم بر الأمان، فساعدوني يرحمكم الله كي ننجو من الغرق. وفي زحمة الغياهب تعترض سبيلي تلك المرأة اللعوب وتغمز لي بعينها. يا للهول! هل بقي فيَّ شيء ما زال يلفت نظر الحِسان؟ في وقدة الاشتعال داعبتني نسمة متألقة بالزهو، وفرحة واردة من الغيب، حتى اختَلْت في مشيتي، وأصررت على حلق ذقني كل صباح. وعند حساب التكاليف المطلوبة بحدها الأدنى حضرني ملاك الرحمة، ألا يلزمني تقديم هدية، أو أكثر أي مكان ولو ليومٍ واحد، وإعداد عشاء وشراب كالأيام الخالية؟ وكبحت أهوائي بقوة لا تُتاح إلا للمفلسين، وهربت معتلًّا بمختلف الأعذار، وخرجت من التجربة موسومًا بنظرة احتقار لا تزول مثل الوشم، وأشاعت الغندورة في كل مكان بأني مصاب بداء خفي كريه الرائحة، وكلما صادفتني في طريق هتفت بي كيف حالك يا أقرع؟ فأحمد الله على أنني رأيت برهان ربي في الوقت المناسب. وهكذا .. وهكذا .. وهكذا. وأصحو ذات يوم لأجد أن الكهولة أيضًا قد ولَّت، وأنني أتخذ الإجراءات المعهودة؛ تمهيدًا للإحالة على المعاش، وأنني أودع بصفة نهائية التعاليم المالية ولائحة المخازن والمشتريات. وبقدرة الرحمن الرحيم انحلت عقدة الأزمة فتخرج الأبناء ومضى كلٌّ في سبيله. ووجدت وشريكتي

أنفسنا بين يدي الشيخوخة بلا دفاع، فبالإضافة إلى الضغط أصبحت ذا كُلًى عليلة وعانيت مُرَّ أرَقٍ مستمر. أما الشريكة؛ فقد خلعت ثوب الأنوثة وباتت بين بين، وخانها عضوان هامَّان هما القلب والجهاز الهضمي، واصطبغت بصفرة ضاربة إلى الزرقة، ونبتت لها شُعيرات عند طرف أنفها واستغرقتها الصلاة والصوم. ومهما يكن من أمر فحالُنا خير من حال كثيرين، ألم أتمَّ رسالتي على خير وجه ورغم الظروف الشرسة المتحدية؟! ولكن للأسف جَدَّت أمور لم تكن في الحسبان، فاثنان من الأبناء وجدا عملًا مجزيًا في الخارج فودعناهما بقلب حزين، وأصبح أحد الاثنين الباقيين زبونًا مزمنًا للشرطة والنيابة، أما الأخير فقد تورط فيما لم يجرِ لي في بالٍ وحُكم عليه بعشرين سنة. وربما استطعت أن تتصور حالي، ولكنك ستعجز تمامًا عن تصوُّر حال شريكتي. إنها لا تكف عن الدعاء على الدولة برمتها. ونابت عن ابنها السجين في تكفير المجتمع كله، وأرادت أن تحجَّ لتدعو على الدولة في بيت الله الحرام، ولكن من أين لي المال الذي أُحقق به رغبتها؟! وجعلت أهرب من البيت إلى الصحاب في المقهى، ونازعتني نفسي إلى زيارة الأماكن التي شهدت طفولتي وصباي وأحلامي السعيدة، وتتابع أمام عينيَّ شريط حياتي بجميع ما حفل به من متناقضات وعِبر، وكلما شيَّعت صديقًا أو زميلًا إلى مثواه الأخير لاح لي يومي وهو يقترب، وقلت لامرأتي: إن خير ما نفوز به في هذه الحياة هي الحكمة، فإذا عرفناها عرفنا الرضا وسلمنا بأنه لا شيء في الحياة يستحق الحزن أو الأسف، فلنسلم أمرنا لله؛ فكل ما جاءنا من عنده. ولم يمهلني المرض لمعاشرة الحكمة طويلًا، فانطرحت على الفراش بلا حول، وقال لي كل شيء: إنها النهاية. وتساءلت تُرى ما مذاقك أيها الموت؟ وكيف تحل إذا حللت، وعلى أي حال نترك هذه الدنيا المليئة بالإغراء والخداع؟ وذات صباح دهمتني هذه اللحظة الفريدة المقدسة، ففقدت الوزن والتوازن، وانغمست في شعور كامل الجدَّة لم ينبض به الوجدان من قبل، قلت: إنني سأسبح أو أطير، وإنني أستقبل عالمًا لم يُطرق من قبل، وإن الضوء هادئ لدرجة السحر وإنه بلا نهاية، وإنني مستسلم بلا اكتراث أو ألم أو ضيق، وإن أهازيج البشر تعزف من حولي. وانفلتُّ من الجسد إلى الحقيقة المُطْلقة، وتجلى لي ما قبل الميلاد وعبوري بالدنيا والمستقر الأخير منظرًا واحدًا جامعًا متكاملًا كالوردة الكاملة، لا يخفى لها أريج ولا سر، فثملت بالاستنارة والسعادة الحقيقية، ولم يبقَ معي من ذكريات الدنيا إلا المثل الشعبي الذي يقول:

اللي تحمل همه ما يجيش أحسن منه.

شارع ألف صِنف

شارع ألف صنف، للأحلام والحقائق، مطهى الرغبة في سخائها وتنوعاتها، وتلخيص مركَّز معجز لشهوة الحياة. تقوم على جانبيه ذوي الطوارين العريضين المسقوفين أشياء ناطقة بألف لسان. حوانيت متلاصقة ومتراصة مُبهرة بأناقتها، ثمينة بمعادنها؛ تخطف الأبصار بشتى الألوان، فيجد كل عضو في الجسم البشري وكل نزعة في الجهاز العصبي ما يشتهيه من أغذية متعددة الجنسية ومرطبات وخمور وملابس وأدوات منزلية، وروائح عطرية، وأدوية ومقويات ولعب أطفال، وسيارات وأجهزة طبية وكهربائية ووسائط للاستهلاك والإنتاج، يضطرب بينها تيَّار من الخلق لا ينقطع من الجنسين وكافة الأعمار، سوقًا لمن يشتري، ومرتادًا لمن يتفرج. وفي وسط جناحه الأيمن يقع مقهى «عكاظ»، مقهًى وخمارة ومطعم، ولكنه يختص برجال الأعمال وعقد الصفقات، وندر أن يطوف به زبون عادي، بالإضافة إلى القوَّادين والنصَّابين وبنات الهوى ممن لا تتم صورة الوجود إلا بهم. وفي الأدوار العليا من العمائر توجد فنادق وبنسيونات، يأوي إليها عادةً رجال الأعمال غير القاهريين، وفي رحاب حصانتهم ينعم أهل الهوى بمنازل للدعارة شبه آمنة. من أجل ذلك جرى تاريخه منذ قديم في سلام نسبي، فلم ترد أخباره في صفحات الحوادث شأن غيره من الأماكن التي تلاحقها عين الشرطة الساهرة. ومن أجل ذلك أيضًا لفت مجيء ذلك الزبون الطارئ الأنظار، وبخاصة وأنه لم يزُر مقهى عكاظ زيارة عابرة لتناول فنجان قهوة أو كأس كونياك أو طبق مكرونة. كلا، لقد اختار مجلسًا في عمق المقهى غير بعيد من البوفيه. يحتله من الضحى حتى منتصف النهار، ثم يعود إليه من الخامسة حتى وقت التشطيب. ذو مظهر متواضع، ببدلة اقتصادية، ووجه أربعيني ناطق بأصله الشعبي، فلا هو من رجال الأعمال، ولا من أصحاب الصفقات، ولا من رواد الفُرجة والشراء، ولا من طلاب اللهو. يأمر بفنجان قهوة، ويجلس هادئًا مبرأً من سمات الانتظار

والتململ، لا يسعى لمعرفة أحد ولا يشجع أحدًا على معرفته، كأنه غائب تمامًا عما يدور حوله. وتلك واقعة تمر، فلا تستحق الذكر في أي مقهًى إلا مقهى عكاظ الذي لم يألف إلا أعضاءه المعروفين. لذلك اكتسب شهرة منذ الأسبوع الأول لظهوره. لفت الأنظار وأثار جملة من التساؤلات. وتطوع قواد لاستخراجه من قوقعته فجلس فيما يليه وسأله عن الساعة، ولكن الرجل أشار صامتًا إلى ساعة المقهى المثبتة في الجدار فوق الميزان ولم ينبس بكلمة. وضاق به الجميع، واعتبروا حضوره غزوًا لحصنهم الحصين. ومر وقت قبل أن يُعرف اسمه بمحض الصدفة؛ إذ رن جرس التليفون، فرفع نادلٌ السماعةَ ثم نادى: السيد منصور زيان.

فقام الرجل إلى التليفون تُحدق به الآذان.

– آلو.

– ...

– هات ما عندك.

– ...

وطالت مكالمة المتحدث، وأخيرًا قال السيد منصور: طظ.

وأرجع السماعة إلى موضعها، وعاد إلى مجلسه دون أن يشفي غليل أحد، فازداد غموضًا وازدادوا ضجرًا. ولم يجدوا بُدًّا في النهاية من إهماله. وشُغلوا عنه بحادث يعتبر غاية في الاستثناء في هذا الشارع، وهو كبس الشرطة لبنسيون وسَوْق من وُجِدَ فيه من نساء ورجال إلى القسم. تبودلت نظرات حائرة، ونوقش الموضوع على أوسع نطاق، كيف حدث ما حدث مما يُعَدُّ خرقًا للتقاليد المرعيَّة؟! ونظر قوادٌ ناحية منصور، وهمس: جاء النحس مع النحس.

ولم يكترث أحد لقوله. ولكن لم يكد يمر شهر على الحادث حتى استُدعي كبير من رجال الأعمال بتهمة التهرُّب من ضرائبه المستحقَّة، فاهتزت الأفئدة وانتشر الذعر مثل صرخة بِلَيلٍ. ماذا يحدث في الدنيا؟ ليس اليوم كالأمس. ثمة نذير شرٍّ يزحف. ولغير ما سبب منطقيٍّ تضاعف الضيق بالسيد منصور، باعتباره شؤمًا كما قال القواد ذات يوم. وعندما ضُبطت سلع مُهربة من الجمرك، وقُبض على أصحابها انفجر الذعر، وعقد الرجال اجتماعًا للتشاور. شعروا بأنهم مطاردون، وبأن دورهم آتٍ لا ريب فيه. وقال أحدهم: عنَّت لي فكرة، إنه ليس نحسًا فحسب!

– تعني سي منصور؟

– أجل.

– إنه مُرشد ذو دور مرسوم.

– ولكنه لا يُبارح مجلسه؟

– لا علم لنا بما يفعل قبل ذلك أو بعد ذلك.

وتراكم الشك، حتى صار يقينًا بلا دليل. لم يجئ لتزجية الفراغ. ماذا يحمله على المجيء يومًا بعد يوم؟ ما عمله؟ كيف يعيش؟ وأجمعوا على أنه مرشد لحساب جهة معادية، وأن عمله لن يتم إلا بالقضاء عليهم أجمعين. واقترح بعضهم التخلص منه. ولكن ألا يُعَدُّ ذلك حمقًا غير مُجدٍ، واستفزازًا لقوة مجهولة لا يُستهان بها؟ واقترح البعض احتواءه وشراءه بأي ثمن، ولديهم المال والنساء. ولعل مناسبة الاحتفال برأس السنة الجديدة أن يتيح فرصةً فريدة لاصطياده. وتزيَّن المقهى في الليلة السعيدة بالورد وتشكيلات المصابيح الكهربائية الملوَّنة، وتوسطته طاولة طويلة صُفت فوقها قوارير الويسكي بغير حساب، وجلس إليها في الوقت المناسب الرجال من أكبر رجل أعمال إلى أصغر قواد، وبقي الرجل وحده بمجلسه المختار. وانضمت إلى الموجودين مجموعةٌ مختارة من الحِسان في أحسن صورة وعلى أتم استعداد. وانطلقت الأنخاب كالشهب حتى تغلغل المرح في أعماق الكآبة. والتفت أحدهم نحو الرجل وقال: هلا شرَّفْتنا يا سيد منصور؟

فبسط راحته على صدره شاكرًا صامتًا مصرًّا على توحده. ولكن الآخر لم ييأس، فملأ له كأسًا ورجا أقرب الجلوس إليه — امرأة — أن تقدمها له، ففعلت برشاقة وقال رجل الأعمال: من أجل خاطرنا.

ولكنه أعاد الكأس إلى الطاولة معلنًا عن شكره بإحناءة من رأسه، لائذًا بصمته. وتساءل رجل الأعمال مداريًا وقدة غضبه: كيف تمر بك هذه الليلة كغيرها من الليالي؟

فخرج منصور من صمته، قائلًا في غير ما اكتراث: الواقع أنها كغيرها من الليالي.

فقالت المرأة محتجة: لا .. لا .. وأستطيع أن أُثبت ذلك.

وقال رجل أعمال آخر: أذكر رجلًا يُشبهك تمامًا إلا أنه يرتدي جبة وقفطانًا.

فقال منصور: لعله أنا دون سواي!

– ولكنه بجبة وقفطان؟

– هذا هو ردائي في غير فصل الشتاء!

– بدلة في الشتاء وجبة وقفطان في الصيف؟

– بالتمام والكمال!

وتبادلوا نظرات ساخرة، غير أنهم تقدَّموا خطوة جديدة مع تماديهم في الشراب، فراحوا يقدمون أشخاصهم واحدًا في أثر واحد؛ ليحملوه على تقديم نفسه، ولكنه تابعهم في غير اكتراث، وتحدَّى عربدتهم بالإصرار على الصمت. أي إهانة؟! وقالت المرأة: إن هذا يعادل أن تتعرى امرأة أمام رجل، فيتخذ من جسدها مسندًا لرسالة يروم كتابتها. وسأله الرجل واجمًا: ألا ترغب في تقديم نفسك؟

فأجاب في برود: كلَّا.

أيقنوا من أنه يتكلم من موقع قوة وثقة، وأن وقاحته لن تقف عند حد. وانقلب الرجل غاضبًا فهتف: اغرُب عنا قبل أن تُفسد علينا ليلتنا!

فقال بتحدٍّ: الواقع أنكم تفسدون عليَّ ليلتي.

– لا خير فيمن لا يحب الناس.

فكرَّر ساخرًا: لا خير فيمن لا يحب الناس.

وخافوا إن استسلموا للطعام والشراب أن تنحل عُقدة ألسنتهم، فتبوح له بأسرار ينفذ بها إلى مصارعهم، ففسدت السهرة بالفعل ومضت في توتر وتعاسة. وأقسموا ليهتكنَّ سره. وعهدوا إلى قواد معروف بالنشاط أن يتجسس عليه ليوافيهم بخبره. وانطلق الرجل في أثره وانتظروا.

ومرت أيام وكل شيء يجري على حاله، ولكن الرجل لم يرجع من رحلته ولم يظهر له أثر. وانتظروا أكثر وسحابة سوداء تمطرهم بالقلق، ولم يُسفر الانتظار عن شيء. فُقِد المرشد لا ريب في ذلك، وفي أثناء ذلك سقط مُتهرِّب آخر ومهرِّب مخدرات ذو وزن في الهيئة الاجتماعية. وأظل الذعر الشارعَ العتيد فانطفأت أنواره. وتطوع قواد جديد بالعمل مدعمًا بحذَر أشد، ولكن ظُلمة المجهول ابتلعته كما ابتلعت صاحبه. وتمطى كابوس الخوف فاختفى القوادون، وتعطلت الدعارة، وانكمش الانحراف. ولبث الرجل الغامض بمجلسه، أفنديًّا في الشتاء وبلديًّا بقية العام. وتتابع السقوط وهرب مَن هرب. وقال له أحدهم، وهو يتأهب للذهاب: عرفتك، ما أنت إلا عميل لدولة أجنبية، اختارتك لتحطيم القوى الوطنية.

فهز الرجل رأسه في دهشة وتساءل: عمَّ تتكلم أيها السيد الفاضل؟!

وتحير صاحب المقهى العجوز الذي رأى كثيرًا وسمع كثيرًا. رأى الحادثات وهي تقع، ولكنه لم يعرف لها تفسيرًا. دالت دولة الرجال الأقوياء فتساقطوا مثل أوراق الشجر الجافة. انقلب الشارع من حال إلى حال، ذهب أناس وجاء أناس، تراجع زبائن وقَدِمَ زبائن، أُلغيت وظائف ونشطت وظائف جديدة، واستقبل المقهى روادًا عاديِّين لا علم لهم

بسابقيهم، ولم يبرح الرجل الغامض مكانه، ولا بدا عليه أنه يدرك من حقائق الأمور أكثر مما يدرك هو. ويجيء قوم من هواة المعرفة فيحدقون بصاحب المقهى، ويقولون: كل شيء حدث تحت سمعك وبصرك، فخبرنا عما حصل يرحمك الله.

فيقول الرجل ببراءة: عِلْمي علمكم يا سادة، وها هو الرجل الذي جعلوا منه أسطورة، مثلي ومثلكم، ما سمعت منه كلمة غريبة ولا شهدت منه فعلًا غير مألوف، فلست أملك علمًا أضن به عليكم، وما أعرف أكثر مما تعرفون من أن دنيا برمتها اختفت كما تختفي مدينة في أعقاب زلزال مُدمر، ونشأت مكانها دنيا جديدة، فسبحانَ علام الغيوب!

المسخ والوَحْش

أعجبتني حكاية الشاطر حسن في بلاد الواق الواق. غادر ذات يوم أسرته كما يغادر الفرخ بيضته وراء حلم غامض، فأسعده حظه الميمون بلقاء سيدنا الخضر. وقرأ سيدنا في وجهه براءة الفطرة ونقاء الحلم، فحدثه عن مأساة مسوخ تُعساء مسخهم وحش آدمي أحجارًا غير كريمة، فأشعل في قلبه رحمة وهِمَّة. ووهبه فرصة فريدة لتحرير المسوخ وإرجاعها إلى إنسانيتها المهدرة، وذلك بقتل الوحش. ودله على المكان الملقاةِ فيه الأحجار الممسوخة، والوسيلة التي يقتل بها الوحش، فمضى إلى بلاد الواق الواق، ورأى بعينيه الحزينتين الأحجار الآدمية. وتربص بالوحش حتى جاء في وقته المعلوم فأكل وشرب ونام، فوثب عليه وقتله. وفي الحال تلاشت الصفة الحجرية واستوت الأحجار بشرًا يُهلِّلون فرحًا ببركة الحياة المُستردة. ورحتُ أتذكر الحكاية وأنا بمجلسي المعهود في خمَّارة نجمة الصبح ورأسي مشعشع بالنشوة. وكالعادة غِبتُ في أعطاف حلم ورديٍّ، ثم انتبهت على رجلٍ يجلس إلى جانبي يمزج النبيذ بعصير الليمون، ملتفٍّ بعباءة أرجوانية، معتَمٍّ بعِمامة خضراء، يبهر الناظر بلحية بيضاء مسترسلة، حتى ثغرة صدره. ولم يكن التطفل من شيم أهل خمارتنا، ولكن الأُنس حل بي، فحدس قلبي أنه صديق يشعُّ الخير من ومضات عينيه. قلت مُرحبًا: أهلًا.

فقال بنبرة باسمة: صحتك.

واستسلمت للنشوة إلى مراقيها حتى هتفت: هذه ليلة ولا كل الليالي.

فسألني بعذوبة: كيف اهتديت إلى هذه الخمارة التي بالكاد لا يعرفها إلا رُوادها؟

فقلت جذلًا: بحسن الحظ وحده، ومن يومها لم يعد يؤرقني شيء.

فتساءل بصوت يمتزج فيه الحنان بالسخرية، كما يمتزج في قدحه النبيذ بالليمون: ولا المسوخ؟!

دقت كلمة المُسوخ ناقوس اليقظة في قلبي، فتساءلت: أي مسوخ تعني؟

– هم مسوخ ذوو مسوخ من ضحاياهم، ولا نجاة لهؤلاء أو أولئك إلا بقتل الوحش!

فتهدَّج صوتي وأنا أقول: لعمري إنك لَسيدنا الخضر دون غيره!

– لا أهمية لذلك، المهم مَن يكون الشاطر حسن؟

وهم بالقيام فأمسكت براحته، وسألته بشغف: متى أراك ثانية؟

فقال واقفًا معلنًا عن قامته الطويلة النحيلة: لا أهمية لذلك.

وذهب مشيَّعًا بمودتي الخالصة. وبقوة آسرة، ودون مقدمات، آمنت بأنني صاحب رسالة، وأنه آنَ لي أن أودع أحلام اليقظة. ولكن من يكون المسوخ؟ ومن يكون مسوخ المسوخ؟ ومن يكون الوحش؟ وكيف فاتني أن أستجوبه؟ ولم يغِبْ عني السر، فالحقيقة أن محضره يشتت الإرادة. وجدتني في محضره طوع خواطره، مسلوب المنطق، لا أزيد عما يريد حرفًا. هذه هي الحقيقة. ولذلك لم يداخلني شك في أنه ولي من الأولياء. وأدركت بعد فوات الوقت أنني لم أنتبه لقيمة الوقت، وأنني عبرت معه لحظة من اللحظات التي تُسترجع فيما بعد بشق الأنفُس، فيعتدُّها الخيال إحدى الفرص التي لا تتكرر ولا يجدي معها الندم. واستَدعيتُ بإشارةٍ النادلَ عم زياد البرلسي، ثم سألته: هل تعرف الشيخ الذي كان يجلس إلى جانبي؟

فقطَّب متذكرًا وقال: شغلني العمل عن ذلك.

– ولكنك قمت بخدمته، وقدمت إليه طلبه؟

– لعله كان يجلس في مكان ما ثم انتقل إليك بقدحه.

وكان من الممكن أن أعتبر المسألة حالًا من أحوال السُّكْر تذهب بذهابه، ولكن لا جدوى من مخادعة النفس، فالأمر أخطر مما يُتصوَّر. نفذ السهم إلى مركز اليقين. وما كان في وسعي أن أتحلل من مهمة ألقتها الأقدار على عاتقي، فأرضى هانئًا بالعودة إلى آفة اللاشيء. وألقيت نظرة على مَن حولي من السكارى، فإذا بهم يسبحون فوق تيار من الهموم المتضاربة، ويناقشونها بندًا بندًا بغير ملل. الأسعار، التهريب، الاستيلاء على أراضي الدولة، الثروات غير المشروعة، سوء المعاملة، الطوابير، الديون، النفوذ الأجنبي، القذارة، المجاري، المذابح، وغيره مما لا يحيط به حصر، ولكن لا أحد يتحدث عن مسوخ أو مسوخ المسوخ أو الوحش. ومتشجعًا بحنان الليالي المتتابعة سألت: هل رأى أحد منكم الشيخ ذا العباءة الأرجوانية؟

فانطرحتْ لحظة صمت، ثم اندفعت أصوات ضاحكة تُغني:

يا بو العباية!

لم يبلَّ أحد ريقي، وغرقوا في الضحك والهناء، فعدت أسأل: مَن المسوخ؟ هل جرى لكم عِلم بذلك؟

فماجوا بحركات الضحك الراقصة، غير أنني سألت بإصرار: ومن يكون الوحش؟

فصاح أحدهم: أخوكم وصل، فلتحفظنا بركة دعاء الوالدين!

أقلعت عن السؤال. وغادرت الخمَّارة وأنا أعد نفسي من مواليد تلك الليلة العجيبة. وكلما أقبلتُ على الخمارة أقبلت على أمل في أن أرى الشيخ من جديد، ولكن دون جدوى. وطيلة نهاري أتساءل عمن يكون المسوخ وعمن يكون الوحش. وكلما مررت بحيوان أو شجرة أو حجر استحوذ على خيالي، ولمحت في صميم جوهره مسخًا من بني آدم يئن ويتعذب. وساءتني التفرقة في المعاملة بيني وبين الشاطر حسن، فبقدر ما أعَانَه الخضر على أداء مهمته بقدر ما أعرض عني، تاركًا إياي للكدح والعذاب. وانتهت بي الحيرة إلى اتخاذ قرار جريء، وهو أن أسأل أهل الرأي والخبرة، مستشهدًا بقول القائل «لا خاب من استرشد.» واتجه ذهني أول ما اتجه نحو السيد «م» وهو من البارزين في الحزب الوطني الديمقراطي. توسلت إلى مقابلته بصديق، ثم عرضت عليه حيرتي، وسألته: من هم المسوخ؟ ومن هم مسوخ المسوخ؟ ومن هو الوَحش؟

ولم يأخذ من التفكير إلا أقصر وقت ثم قال بثقة: عندنا نوعان منهم، مسوخ من العملاء الملاحدة، ومسوخ المسوخ هم المخدوعون من أتباعهم، والوحش في هذه الحال هو الشيوعية أو إن شئت الاتحاد السوفييتي. ومسوخ من التيار الديني المنحرف، ومسوخ المسوخ هم أتباعهم من المخدوعين. والوحش في هذه الحال بعض الدول مثل إيران وليبيا.

وتركته شاكرًا وبي غصة من خيبة الأمل؛ إذ مهما تكن ثقتي في نفسي ورسالتي؛ فمن أين لي بالقوة التي أقتل بها الاتحاد السوفييتي وإيران وليبيا؟ ولكن همتي لم تفتُرْ، فاتجه تفكيري في الحال نحو الأستاذ «أ» المُعترَف بحكمته في حزب التجمع، واستقبلني سيادته بلا أدنى صعوبة، فعرضت عليه حيرتي، ثم سألته: من هم في رأيك المسوخ ومسوخ المسوخ، ومن هو الوحش؟

فاعتدل في جلسته، وابتسم ابتسامة العالم بكل شيء، وقال: يستوي عندي أن تكون سائلًا بريئًا، أو أن تكون قادمًا من طرف السيد وزير الداخلية، ولكن ذلك لن يمنعني

من إجابتك، طالما أننا نعمل في وضح النهار، فاعلم أن المسوخ هم عملاء الغرب، ولا يوجد مسوخ المسوخ؛ لأنه لا أتباع لهم، وما الملتفُّون حولهم إلا مجموعة من الانتهازيين، تجدهم بأشخاصهم في رحاب كل حكومة، أما الوحش فهو الإمبريالية العالمية أو إن شئت الولايات المتحدة الأمريكية.

فأكدتُ لسيادته أن حيرتي نابعة من ذاتي، ولا علاقة لها بالسيد وزير الداخلية، وشكرت له بيانه، ثم غادرته مُوقنًا بأن الصعود إلى القمر بلا تكنولوجيا أيسر عليَّ من قتل ذلك الوحش الجديد. ومع ذلك صمَّمت على السير في طريقي حتى نهايته. تذكرت صديقًا قديمًا انخرط منذ أعوام في تيار ديني متطرف، فقصدته دون تردد. استقبلني مداريًا فُتورَه؛ إكرامًا للعهد القديم، ولكنه امتنع في الوقت نفسه عن مصافحتي متمتمًا: معذرة، لا أصافح كافرًا!

وكنت موطِّنًا نفسي على تحمُّل أي سلوك يجيئني منه، فقبلت عذره. وعرضت عليه حيرتي ثم سألته: مَن هم المسوخ؟ ومَن مسوخ المسوخ؟ ومَن يكون الوحش؟!

فقال من فوره: المسوخ هم حُكام البلاد الإسلامية ورجال الدين بها، ومسوخ المسوخ هم جمهرة المسلمين، وأما الوحش فهو نظام الحكم في كل مكان.

وغادرت موضعه مغموسًا في المرارة. خُيل إليَّ أن القضاء على الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة معًا أيسر من القضاء على الوحش الجديد، ولكني لم أنثنِ عن مسيرتي. وتذكرت الأستاذ «ن» الذي يُمثل فكر الوفد كخير ما يكون التمثيل. واستقبلني سيادته بحرارةٍ لا توهب عادة إلا للأصدقاء. وعرضت عليه حيرتي، ثم سألته: مَن هم المسوخ، ومَن هم مسوخ المسوخ، ومن هو الوحش؟

فقال باسمًا في ثقة تامة: المسوخ هم جميع السياسيين غير الوفديين، ولا أتباع لهم في الحقيقة، فالبلد وفدي مائة في المائة، أما الوحش فهو النظام الدكتاتوري الذي لم يُوفَّق بعدُ إلى قناع يُخفي به وجهه.

وتركته شاكرًا، وأنا أقول لنفسي حقًّا: إن هذا الوحش يبدو أقرب إلى اليد من الوحوش الأخرى، ولكن بالقياس إلى قوتي الذاتية يمكن القول بأن «سي أحمد أخو الحاج أحمد». ولم يبقَ في جدولي إلا المثقفون، فاخترت الأستاذ «أ»؛ لمنزلته المعترف بها من الجميع. واستقبلني بحياد، فعرضت عليه حيرتي ثم سألته: من هم يا أستاذ المسوخ؟ ومن هم مسوخ المسوخ؟ ومن هو الوحش؟

فأجابني بجفاء: المسوخ هم الجهلة، وتجدهم في كل موقع لا بقاء لهم إلا بالقوة، ومسوخ المسوخ أتباعهم، وهم أجهل منهم ولكنهم أكبر دهاء وانتهازية، أما الوحش فهو الجهل.

وتركته وأنا أتساءل، وكيف يمكنني قتل الجهل؟ أجل إني أعتبر الأستاذ «و» خير من يُجسد الجهل، ولكن هل يزول الجهل بقتله؟ ووجدتني أغوص أكثر وأكثر في دوامة لا فكاك منها، حتى ورد على خيالي مولاي العارف بالله الشيخ «ص» فقصدته من فوري، واستقبلني — كالعادة — باسمًا مُرحبًا، ولكنه بادرني قائلًا: أعرف ما ساقك إليَّ اليوم!

فلم أُدهش لسابق علمي بقدرته على النفاذ إلى أعماق القلوب. وقال متعني الله بعمره ونورانيته: ما المسوخ إلا عُشاق هذه الدنيا الفانية، ومسوخ المسوخ هم المبهورون بما يملك سادتهم من زخارف زائلة، أما الوحش فهو النفس الضالة.

وعُدتُ إلى بيتي وأنا أقول لنفسي: حقًّا إن هذا الوحش لا يُستهان بأمره، ولكن قتله ممكن، ولن يعرضني لقبضة القانون. وأعلنت الحرب، وأقسمت على الصمود والتصدي مهما طال بي الزمن. ولم أهجر بطبيعة الحال خمارةَ نجمة الصبح التي عرفتُ أستاذي العارف بالله في ركن من أركانها. وفي ذات ليلة وأنا ثمل بنشوتي في مجلسي المختار انتبهت على وجود صاحب العباءة الأرجوانية إلى جانبي، وهو يمزج النبيذ بالليمون. وهتفت: يا للسعادة! لقد جئت أخيرًا.

ولكنه لم يُعِرني أدنى اهتمام، فقلت: لقد عملت بمشورتك، وها أنا أقاتل الوحش حتى أقتله.

وأصرَّ على تجاهلي تمامًا، ولم يُلقِ عليَّ نظرة واحدة، ولم تهب عليَّ من ناحيته نسمة أُنس أو مودة.

وأفرغ قدحه في فِيهِ، ثم نهض متجهِّمًا وذهب.

تركني لحيرة لم تخطر لي في بال.

البَقاء للأصلح

المنة لله، لا أحمل في الدنيا همًّا. مترجِم محترَم، ومالِك بيت مكوَّن من ثلاثة أدوار وبدروم، متزوج وموفَّق، وأب لشاب وشابة متزوجين، وإلى هذا كله فإنني حسن الهضم لهموم الدنيا الصغيرة. في العصاري — عدا أيام الشتاء — أجلس في شُرفة الدور الأوسط برفقة زوجي والقهوة والفول السوداني واللب الأبيض، يترامى أمام أعيننا شارع البطريق بحوانيته وجراجه العمومي، نتفرج على كل مَن هبَّ ودب. من مجلسنا نرى سُكَّان بيتنا في الذهاب والإياب، علي كمال ساكن الدور الأعلى وهو محامٍ، ونُطلق عليه «الأستاذ»، وصاحب الدور الأول مدكور البقلي، ونُطلق عليه «الشيخ» رغم أنه أفندي وذلك لإرساله لحيته. أما البدروم فتقيم فيه ست محسنة رضوان وندعوها «المحمل» لسمانتها. وعلى صِغَر البيت؛ فكل أسرة مستقلة بذاتها لا تعرف من أصول الجيرة إلا التحية العابرة عند اللقاء النادر. من أجل ذلك انطوت كل أسرة على أسرارها، فلا أعرف عن أي منها شيئًا يستحق الذكر. غير أنني لاحظت دون جهد كثرة زوار الأستاذ والشيخ، أما ست «محسنة»؛ فكانت تعيش في عُزلة شبه مُطْلقة. وذات يوم طلب الأستاذ مقابلتي فاستقبلته مُرحبًا ومداريًا قلقي حيال قسماته الحادة ونظرته الثاقبة. اعتذر عن تطفله بأسلوب لبِق ثم قال: حرصًا على وقتك سأدخل في الموضوع مباشرة.

فشجَّعته بابتسامة فقال: أنا في حاجة إلى البدروم والدور الأول، وسيعود عليك ذلك بخير وفير!

فقلت وأنا في غاية الدهشة: ولكن لكلٍّ ساكنُه، وأنت أدرى بقوانين المساكن!

فقال بثقة: سيضطرون إلى إخلاء مسكنيهما، ولكن يجب أن نتفق قبل ذلك.

فتساءلت في حيرة: كيف؟

فَكَوَّرَ قبضته السمراء تحت ذقنه، وقال: ثبت لديَّ أن مدكور البقلي من الخطِرينَ، وأنه جعل من شقته مُلتقًى لنفَر من التيار المتطرف.

فتولاني خوف وقلق وقلت: لا عِلْم لي بذلك، ولا شأن لي به.

– طبعًا، سأتكفَّل بالواجب، ولكنَّا علينا أن نتفق أولًا.

– وست محسنة رضوان؟

فضحك ضحكة مقتضبة وقال: اصحَ يا نائم، إنها تنتظر حتى يجثم النوم، ثم تستقبل أهل الدعارة!

ففزعت هاتفًا: لا!

– هي الحقيقة، وسوف تلمسها بنفسك.

– إنك مُقْدِم على مغامرة خطيرة!

– إني واثق من نفسي تمامًا.

وشملنا صمت غير قصير، ولما استرددت أنفاسي سألته: وماذا تفعل بالشقَّتين؟ سأجعل من البدروم مطبعة، ومن الدور الأول دارًا للنشر، وسيكون لك عقْد مناسب.

وقلت وأنا أنفخ: تلزمني مهلة للتفكير والتشاور مع الهانم.

فقام وهو يقول: طبعًا، ولكن ليكن الموضوع سرًّا بيننا.

وأفضيت بهمي كله إلى زوجي، فقلَّبت الأمر على وجوهه، ثم انتهت إلى أنه إذا صح ما يدعيه الأستاذ ونجح تدبيره، فسوف يتطهر البيت ويضاعف الدخل. وما علينا من بأس طالما أنه لن يورطنا فيما لا نحب. ولكن قبل أن يتم اللقاء مع الأستاذ طلب الشيخ مدكور البقلي مقابلتي. توقعت من فوري مزيدًا من الارتباك والهواجس، وخُيل إليَّ أنه شعر بطريقة ما بما يدور حوله فبادر للعمل. وتقابلنا فاعتذر عن إزعاجي وقال: يقتضيني دِيني أن أُصارحك بالحق الذي علمته، فقد ثبت عندي أن الدور الأعلى ما هو إلا خلية هدامة، وأن البدروم بؤرة فسق، وسأقوم بما يفرضه عليَّ ديني وضميري.

انهالت عليَّ كلماته كطلقات الرصاص، فغرقت في دوامة صاخبة وتمتمت: أي فظاعة لم تجرِ لي في بال!

– إنك رجل طيبٌ وحسَنُ الظن بالناس، وسيكون خلاص بيتك على يديَّ إن شاء الله، وفي مقابل ذلك أرجو أن توافق على تأجير الشقَّتَين لي!

فتساءلت بذهول: ما حاجتك إليهما؟

– سأجعل من البدروم مطبعة ومن الشقة دار نشر، وعلى أن يتم الاتفاق بيننا على ذلك.

فقلت وأنا أغوص أكثر وأكثر في الدهشة والارتباك: أعطني مهلة للتفكير.

فقام وهو يقول: لك هذا يا أخي في الإسلام، وليكن الأمر سرًّا بيننا، ولكن تذكَّر أن خير البر عاجله.

ولما علمتْ زوجي بما دار بيننا بردَ حماسها الأول، وبدا لها الأمر أشد تعقُّدًا وخطورة، فخافت التورط فيما لا تُحمد عقباه، وتفكرَتْ مليًّا ثم انتهت إلى رأي، فقالت: علينا أن نمتنع عن أي اتفاق ثم ننتظر.

فارتحت إلى رأيها، وعزمت على مصارحة الرجلينِ بأنه لا شأن لنا بالموضوع. ولا اتفاق نرتبط به قبل أن ينجلي الموقف. ولم تكد تمضي ساعات على ذهاب الشيخ حتى رنَّ جرس الشقة، وإذا بست محسنة رضوان تطالعني بجسمها المترامي، في فستان بُني محتشم، معتمرة بخمار أبيض. تمتمت: دستوركم.

ثم مضت نحو حجرة الاستقبال تتبختر كالتختروان، وجلست وهي تقول: أود الاجتماع بك والست حرمك.

وقد كان. وفي أثناء الجلسة استرقتُ النظر مستطلعًا، فبدَتْ لي غير ما تبدو من بعيد، لا لحسنها ونضجها الأنثوي فحسب، ولكن لتلك النظرة التي لا يخفيها التصنع، نظرة مليئة بالخبرة والمجون. فقلت لنفسي: إنها ولا شك كما يُقال عنها. وقالت المرأة بنبرة جريئة وناعمة: كان يجب أن نتعارف من قبل كما يليق بامرأة وحيدة مثلي، ولكني شعرت بأنكما تُؤْثِران العزلة.

ثم مغيرةً درجة صوتها إلى مقام أدنى مشحون باهتمام أكثر: ما علينا، ها هي الضرورة تسوقني إليكم، وتدعونا جميعًا للدفاع عن النفس!

فأقبلتْ زوجي نحوها بتركيز أكثر قائلة: خيرًا؟

– يصدق على بيتنا المثل القائل: يا ما تحت السواهي دواهي، وبفضل من سهري المعتاد وراء الشيش المُغلق عرفت أشياء وأشياء.

وتساءلت أعيننا دون أن تنبس شفاهنا، فواصلت المرأة: تبين لي أن الدور الأعلى وَكْر هدامين، وأن الدور الأول وكر منحرفين، رأيت بعيني وسمعت بأذني، وأَخْوف ما أخاف أن يكون المسكنان قد تحوَّلا إلى مخزنينِ للذخيرة، وأن نكون عرضة للهلاك ونحن لا ندري!

فاستعاذت زوجي بالله بصوت متهدِّج، فقالت ست محسنة: اطمئني فإني أعرف كيف أدافع عن نفسي، وعن الناس الطيبين، غير أنه لي رجاء، هو أن أستأجر شقتيهما بعد خلوهما!

فتسرعت زوجي قائلة: لكِ هذا، يا ست محسنة.

أما أنا فسألتها: وما حاجتكِ إليهما؟

فقالت باسمة كاشفة عن سِنَّتين ذهبيتين لأول مرة: بصراحة سأجعل الدور الأول كافتيريا، والآخر مطعمًا على أحدث طراز، وسيدر العقد الجديد عليكم أكثر مما تُدر عمارة؛ ولذلك يجب أن يتم بيننا اتفاق مبدئي!

ومن منطلق تجربتي السابقة بالموقف نفسه، قلت: تلزمنا مهلة للتفكير.

– صدقني لا ضرورة لذلك، سيتم كل شيء بأسرع مما تتصور!

فتمتمتُ: مهلة قصيرة.

– أمهلك ولا تنسَ صاحبة الفضل في تخليصك من شر مؤكد.

ثم وهي تمضي في سبيلها: يكفيني كلمة شرف!

فقالت زوجي بحرارة: كلمة شرف لا رجوع عنها!

وحقًّا تتابعت الأحداث بأسرع مما تصورنا. في تلك الليلة اقتحم رجال الأمن الشقتين، وسمعنا أنهم عثروا على أدلة بينة، وخُتمت الشقتان بالشمع الأحمر. ولما زايلنا الذهول والانفعال، قلت لزوجي: ستطالبنا بإتمام الاتفاق.

فقالت بثقة: إنها صفقة رابحة، ولعله من الأوفق أن ننتقل نحن إلى الدور الأعلى بعيدًا عن الضجة:

فقلت بقلق: ولكني أُرجِّح أن ما قيل عنها حق وصدق.

– لو صح ذلك لقُبض عليها أيضًا!

– لها عينان فاجرتان.

– إنها بالنسبة إليَّ صاحبة فضل، ولسنا المسئولين عن الأخلاق في البلد.

وكان للمرأة ما أرادت. وتحول بيتنا إلى كافيتريا ومطعم على أحدث طراز. في بادئ الأمر ساورني شك في نجاح المشروع؛ لبُعد مكانه عن وسط المدينة، ولكن سرعان ما أذهلني نجاحه، وإقبال السيارات الفارهة عليه، حاملة أناسًا ما كان يخطر ببال أنهم سيشرفون بيتي المتواضع بحال من الأحوال.

المنة الله، لا أحمل في الدنيا همًّا.

الفَأر النرويجي

من حُسن الحظ ألا نكون وحدنا في هذه المحنة. وقد دعانا السيد «أ. م» بوصفه أقدم مُلاك الشقق في العمارة إلى اجتماع في شقته لتبادل الرأي. لم يزد عدد الحاضرين عن عشرة، بما فيهم الداعي السيد «أ. م». وهو فضلًا عن أقدميَّته أوسعنا ثراءً وأرفعنا مركزًا. ولم يتخلف عن أحد، كيف يتخلف، والمسألة تتعلق بالفئران وغزوها المُحتمل لبيوتنا وتهديدها لأمننا وسلامتنا؟ ويبدأ الداعي بصوتٍ ملؤه الجدية «تعلمون ...»، ثم يسرد ما تردده الصحف عن زحف الفئران وأعدادها الهائلة وتخريبها البشِع. وترتفع أصوات من أركان الحجرة: ما يقال يفوق الخيال.

– هل رأيتم الريبورتاج التلفزيوني؟

– ليست فئرانًا عادية، ولكنها تُهاجم القطط والآدميين.

– ألا يُحتمل أن يوجد شيء من المبالغة في الموضوع؟

– لا .. لا، الواقع أكبر من أي مبالغة.

ثم يقول السيد «أ. م» بهدوء واعتزاز برياسته: على أي حال ثبت أننا لسنا وحدنا، هذا ما أكده لي السيد المحافظ.

– جميل أن نسمع ذلك.

– فما علينا إلا أن ننفذ التعليمات بدقة، ما يجيء منها عني مباشرة، أو ما يجيء عن طريق السلطة.

وخطر لأحدنا أن يسأل: هل يكبدنا ذلك تكاليف باهظة؟

فلجأ إلى الدين قائلًا: الله لا يُكلف نفسًا إلا وسعها.

– المهم ألا تكون مُرهِقة.

فلجأ إلى الحكمة قائلًا: لا يُدفَع الشرُّ بما هو شر منه!

وعند ذاك قال أكثر من صوت: ستجدنا إن شاء الله من المتعاونين.

فقال السيد «أ. م»: نحن معكم، ولكن لا تعتمدوا علينا كل الاعتماد، اعتمدوا أيضًا على أنفسكم، ابدءوا على الأقل بالبديهيات.

– عين العقل والصواب، ولكن ما البديهيات؟

– اقتناء المصايد والسموم التقليدية.

– عظيم.

– الإكثار ما أمكن من القطط في بئر السلم، وفوق السطح وفي الشقق أيضًا إذا سمحت الظروف.

– لكن يُقال إن الفأر النرويجي يهاجم القطط؟

– لن يخلو القط من فائدة.

ورجعنا إلى مساكننا بروح عالية وعزيمة صادقة. وسرعان ما غلب التفكير في الفئران على سائر همومنا. فكثر ورودها علينا في أحلامنا، وشغلت أوسع مساحة في حوارنا، وتصدَّت لنا باعتبارها المشكلة الأولى في وجودنا. ومضينا ننفِّذ ما تعهدنا به، ولبثنا ننتظر مجيء العدو. يقول بعضنا: إنه لم يبقَ من الزمن إلا أقله، ويقول آخرون: سنلمح ذات يوم فأرًا يمرق، فيكون النذير بأن الخطر قد دهم. وتضاربت التفسيرات حول تكاثر الفئران. هو في رأي نتيجة لخلو مدن القنال حين الهجرة، وفي رأي يرجع إلى سلبيات السد العالي، ورأي يحيله إلى نظام الحكم، وكثرة ترى فيه غضبًا من الله على عباده لتنكرهم لهداه. وبذلنا جهدًا مشكورًا للاستعداد الرشيد لم يتهاون فيه أحد. وفي اجتماع تالٍ بمسكن السيد الفاضل «أ. م»، قال حفظه الله: سرَّني ما اتخذتم من أسباب الوقاية، وأسعدني أن أرى مدخل عمارتنا وهو يموج بالقطط، أجل إن البعض شكا إليَّ تكاليف تغذيتها، ولكن كل شيء يهون في سبيل الأمن والأمان.

وقلَّب عينه في وجوهنا بارتياح، ثم تساءل: تُرى ما أخبار المصايد؟

فأجاب أحدنا وهو مربٍّ فاضل: سقط عندي فأر هزيل في فئراننا الوطنية.

– أيًّا تكن هوية الفأر فهو مؤذٍ، أما اليوم فيهمني أن أبلغكم بوجوب المزيد من الحيطة بعد أن أصبح العدو على الأبواب، وسوف تُوزَّع علينا كميات من السم الجديد المطحون في الذرة، يوضع في الأماكن الحساسة مثل المطبخ مع الحذر الشديد لحماية الأطفال والدواجن والحيوانات المستأنسة.

وحصل فعلًا ما وعد به الرجل، وقلنا حقًّا: لسنا وحدنا في المعركة، وتدفق منا الثناء على جارنا الهُمام، ومحافظنا الجليل. أجل حَمَّلنا ذلك الكثير من الانتباه يُضاف إلى

همومنا اليومية. كذلك وقعت أخطاء لا مفر منها، فقُتلت قطة في إحدى الشقق، وعدد من الدجاج في شقة أخرى. ولكن لم تحدث خسائر في أرواح البشر. وكلما مضى وقت اشتدَّ توتر أعصابنا ويقظتنا، وثقل على قلوبنا هم الانتظار، فقلنا: وقوع البلاء ولا انتظاره. ويقابلني جار ذات يوم في محطة الباص، فيقول لي: سمعت من ثقة أن الفئران أهلكت قرية وزمامها كله.

– لا أثر لهذا الخبر في الجرائد!

فحدجني بنظرة ساخرة ولم ينبِسْ. وتخيلت الأرض سائلة بحشود من الفئران لا أول لها ولا آخر، وجموعًا من المهاجرين تهيم على وجهها في الصحراء، أيمكن أن يقع هذا يا ربي؟! ولكن ما وجه الاستحالة في ذلك؟ ألم يُرسل الله من قبلُ الطوفانَ والطير الأبابيل؟ هل يكُف الناس غدًا عن كفاحهم اليومي ليرموا بما يملكون في أتون المعركة؟ وهل ينتصرون أو تكون النهاية؟

في الاجتماع الثالث بدا السيد «أ. م» منشرحًا وراح يقول: تهانيَّ يا سادة، النشاط متقد على أكمل وجه، والخسائر ضئيلة لا تُذكر ولن تتكرر بإذن الله، وسوف نُصبح من أهل الخبرة في مقاومة الفئران، وربما استعانوا بنا في المستقبل في أماكن أخرى، والسيد المحافظ في غاية من السعادة.

وأراد أحدنا أن يشكو قائلًا: الحق في أعصابنا ...

ولكن السيد «أ. م» قاطعه: أعصابنا؟! .. لا تُفسد نجاحنا بكلمة طائشة!

– متى يبدأ الهجوم الفأري؟

– لا أحد يستطيع أن يقطع برأي، ولا أهمية لذلك، طالما أننا مستعدون للمعركة.

ثم واصل بعد فينة صمت: التعليمات الجديدة ذات خطورة خاصة، وهي تتعلق بالنوافذ والأبواب وأي ثقب في جدار أو غيره. أغلقوا النوافذ والأبواب، افحصوا حافة الباب السُّفلية بصفة خاصة، فإن وُجد زيق تنفذ منه قشَّة أقيموا وراءه عوارض خشبية لتسده بالكامل، وعند التنظيف صباحًا يبدأ بحجرة فتُفتح نوافذها، يكنس فرد ويقف آخر مسلحًا بعصًا للمراقبة، ثم تُغلَق النوافذ ويُنتقل إلى حجرة تالية بنفس الأسلوب، وبانتهاء التنظيف تكون الشقة علبة محكمة الإغلاق أيًّا كان المناخ.

وتبادلنا النظرات في وجوم، وقال صوت: من المتعذر الاستمرار في ذلك.

فقال الرجل بوضوح: بل عليكم أن تلتزموا بالدقة البالغة في التنفيذ.

– حتى في الزنزانة توجد ...

وسرعان ما قاطعه بحدة: نحن في حرب، أي في حال طوارئ، وليس الخراب فقط ما يهددنا، ولكن الأوبئة أيضًا والعياذ بالله يجب أن نحسب حسابها!

ومضينا ننفذ ما أُمرنا به صاغرين. وغُصنا أكثر في مستنقع الترقب والحذر، وما يصحبه من ضيق وملل. واشتد توتر الأعصاب، فتُرجم إلى منازعات حادة يومية بين رب البيت وربتها والأبناء. ورُحنا نتابع الأنباء فصار الفأر النرويجي بجسمه الضخم وشاربه الطويل ونظرته المُنذرة الزجاجية نجمًا من نجوم الشر يجول في أخيلتنا وأحلامنا، ويستقطب جل أحاديثنا. وفي آخر اجتماع قال السيد «أ. م»: بشرى، خُصِّصت فرقة من أهل الخبرة؛ لتفقُّد العمائر والشقق والمحالِّ المعرضة للخطر، وذلك دون المطالبة بأية رسوم إضافية.

وكان خبرًا سارًّا استقبلناه بارتياح عام، وأملنا أن نزيح عن صدورنا بعض العَناء الذي تعانيه. وذات يوم أخبرنا البوَّاب أن المندوب تفقَّد مدخل العمارة وبئر السلم والسطح والجراج، فبارك جماعات القطط المنتشرة هنا وهناك، ونبه عليه بالمزيد من اليقظة والإبلاغ عن أي فأر يظهر، نرويجيًّا كان أو مصريًّا. وعقب انقضاء أسبوع واحد على الاجتماع دق جرس الشقة، وإذا بالبواب يبشرنا بقدوم المندوب مستأذنًا في التفتيش. لم يكن الوقت مناسبًا؛ إذ كانت زوجي قد فرغت لتوها من إعداد الغداء، غير أنني هُرعتُ إلى الخارج لأُرحب بالقادم. وجدتني أمام رجل متوسط العمر مكتنز الجسم ذي شارب غليظ يُذكِّر وجهه المربع بوجهِ قطٍّ بأنفه القصير المطموس ونظرته الزجاجية. رحبت به مداريًا ابتسامة كادت تنقلب إلى ضحكة، وقلت لنفسي: حقًّا إنهم يحسنون الاختيار. وسرت بين يديه ومضى يتفقد المصائد والسموم والنوافذ والأبواب، ويهز رأسه بارتياح. غير أنه رأى في المطبخ نافذة صغيرة مصفحة بغشاء سلكيٍّ ذي ثقوب بالغة الصغر، فقال بحزم: أغلقوا النافذة.

وهمت زوجي بالاحتجاج، ولكنه بادرها قائلًا: الفأر النرويجي يقرض السلك!

ولما اطمأنَّ إلى نفاذ أمره راح يتشمم رائحة الطعام معلنًا استحسانه، فقلت له: تفضل.

فقال ببساطة: لا يأبى الكرامةَ إلا لئيم!

وفي الحال أعددنا له مائدة وحده، زاعمين له أننا سبقناه. وجلس إلى المائدة، وكأنما يجلس في بيته، وجعل يلتهم الطعام بلا حرَج ولا حياء وبنَهَمٍ عجيب. ومن باب الذوق غادرناه وحده، غير أنني رأيت بعد حين أن أطوف به؛ لعله في حاجة إلى شيء. وفعلًا

جدَّدت له طبقًا، وفي أثناء ذلك لاحظت تغيرًا مثيرًا في منظره شد إليه عينيَّ بقوة وذهول. خُيل إليَّ أن هيئة وجهه لم تعد تُذكر بالقط، ولكنها تُذكر بالفأر، بل الفأر النرويجي نفسه. ورجعت إلى زوجي ورأسي يدور، لم أصرح لها بما رأيت ولكنني طالبتها بأن تشجِّعه وترحب به، فغابت دقيقة أو دقيقتين، ثم رجعت شاحبة اللون وحملقت في وجهي ذاهلة، ثم تمتمت: أرأيت شكله وهو يأكل؟

فأحنيت رأسي بالإيجاب فهمست: إنه لأمر مذهل يعز عليَّ التصديق.

فوافقتها على رأيها بهزة من رأسي الدائر. ويبدو أن إغراقنا في الذهول أنسانا مرور الوقت، فانتبهنا مع صوته آتيًا من الصالة، وهو يقول بمرح: عامرًا!

فاندفعنا نحوه ولكنه كان قد سبقنا إلى الباب الخارجي وذهب. لم نلمح منه إلا ظهره المترجرج، ثم التفاتة سريعة ودَّعتنا بابتسامة نرويجية خاطفة. ووقفنا وراء الباب المُغلق نتبادل نظرات حائرة.

قاتل قديم

صدرت «يوميات علاء الدين القاهري» فاقتحمَتْ عزلة شيخوختي، عاصفة بهدوئها وانقطاعها عن الحياة العامة. عاد اسمه يطاردني وينكأ جرحًا في كبريائي. ويُذكرني بفترة الاحترام والتقدير، وعهد النفور والرفض، وأخيرًا الفشل. وأقتنى الكتاب، وأنهمك في قراءته، بدءًا من مقدمة ابن أخيه، فأقف على سر تأخير النشر ربع قرن عقب مصرع الرجل احترامًا لوصيته، وأغوص بين السطور؛ لعلي أعثر على حل اللغز الذي حيرني. وينبثق من إحدى اليوميات بصيص نور فأمتلئ بالاستنارة وأنتفض من الذهول، وأهتف في حجرتي المُغلقة: كان القاتل بين يدي طوال الوقت!

واخترقت الضباب إلى حجرتي في نقطة الشرطة، فرأيت رجلًا يندفع داخلًا مضطربًا شاحب الوجه بجسمه الطويل المفتول، ويقول لاهثًا: الأستاذ قتيل في فراشه.

وتفحصته بعين محترفة متسائلًا عمَّن يعني فقال: الأستاذ علاء الدين القاهري.

فأشعل اهتمامي، وأدركت في الحال أن الروتين سينحرف عن مجراه المألوف.

– أنا خادمُه، ذهبت إلى بيته صباحًا كالعادة، رأيت باب حجرة نومه مفتوحًا، فألقيت نظرة فرأيته في فراشه غارقًا في دمه.

واستجابةً لاستفسار قال: أُغادر بيته ليلًا وأعود إليه في الصباح، فأفتح الباب بمفتاح. أما المفتاح الآخر ففي حوزة الأستاذ.

لم أضيع وقتًا أكثر من ذلك، فأبلغت المأمور وذهبت إلى بيت الأستاذ بصحبة قوة من الجنود والمخبرين. وفي الطريق غمرتني ذكريات. ذكرت حماسي لفكرة أيام الدراسة، الذي زحف عليه الفتور فيما بعد وخُتم بالرفض. كان أستاذًا جامعيًّا مرموقًا، ومؤلفَ كتبٍ تعتبر المرجع الأول في الدعوة للحضارة الغربية والنقد المر للتراث، فحظِيتْ بقلة

من المعجبين وكثرة من الناقمين. وجرى الزمن وتغير، فبلغ سن المعاش، واعتزل في بيته، واقتصر اتصاله بالناس على استقبال بعض الزملاء ممن على شاكلته في الرأي، وبعض الشباب من المعجبين. وعانى الجو العام من اختناق في الفكر على المستويين الرسمي والشعبي، فلم يُعِدْ طبع كتبه، ولم يتيسر الاطلاع عليها إلا في دار الكتب، وخاصة لأصحاب الرسائل الجامعية. رغم ذلك كله بقي اسمه حقيقة ثقافية ذات وزن ثقيل في الجيل المخضرم وقلة من الشباب، فلم تغب عني خطورة الجريمة وأثرها المنتظر. ودرست موقع البيت في الخارج وسط صف من بيوت مماثلة شيدَتْها جمعية تعاونية. بيت صغير أنيق أبيض من دور واحد، وحديقة صغيرة تعبق برائحة الياسمين. ورأيت الجثة منكفئة على وجهها، والغطاء منحسر عن نصفها الأعلى، والدم يُغطي مؤخَّر الرأس والقفا وينداح فوق الحشيَّة والوسادة. غلفه وجه الموت الأخرس المغترب. بهتت صلعته، وتمدد أنفه الكبير الأقنى في صفحة ضاربة للزرقة غائصة في اللامبالاة. لا أثر للمقاومة ثمة، وكل قطعة أثاث مستقرة في موضعها في طمأنينة تامة، وفي الحال لحِق بي المأمور ومدير الأمن والنائب العمومي، وجرى فحصٌ شامل للمسكن ومحتوياته. وبهرنا نظامه الدقيق وترتيبه الحسن، فلا يشذ شيء عن موضعه، عدا صينية على خوان في حجرة الاستقبال تحوي عددًا من أقداح الشاي في قراراتها شيء من السائل، ووعاء معدني مفضَّض به بقايا من البسكوت المُطعَّم بالشيكولاتة، ونافضة مليئة بأعقاب السجائر. وصوان الملابس لم يُمَسَّ، والساعة والولاعة، كما عثرنا على مظروف به مائة جنيه. وتبُودل حديث أَولي بين المسئولين: الجريمة لم تُرتكب من أجل السرقة.

– احتمال راجح ولكن يقتضي مزيدًا من التحرِّي.

– هناك باب الخصومة والانتقام.

– هل تدخل في هذا الباب الخصومة الفكرية؟

– لكن الأجيال الجديدة لا تكاد تعرفه، وإن وجب أن يمتد البحث لكل شيء.

– والعلاقات الخاصة المجهولة أيضًا.

وعرفت القنوات التي ستتدفق منها التحريات، ثم بدأ التحقيق باستجواب الخادم عم عبده مواهب. رجل في الخمسين، يعمل طاهيًا وشغَّالًا عند الأستاذ منذ عشرين عامًا، وهو محور البيت كما يخلق ببيت أعزب يعيش وحده. ينتهي عمله عقب تقديم العشاء في الثامنة، ثم يُغادر البيت حوالي التاسعة ليمضي إلى مسكنه بمصر القديمة ثم يرجع

في الصباح قبل استيقاظ الأستاذ عادةً. ويخالف هذا النظام في الليالي التي يستقبل فيها الأستاذ جماعة من أقرانه أو مريديه من الشُّبان. فربما تأخر ميعاد ذهابه إلى منتصف الليل. وبالنسبة لليوم الذي قُتل الأستاذ في ليلته، عَقَد الأستاذ جلسة مع أربعة من الشبان ممن يترددون كثيرًا عليه، وهم طلبة دراسات عُليا، معروفون جيِّدًا بالاسم والصورة لدى عم عبده مواهب. غير أن عم عبده شعر بصداع فاستأذن في الانصراف حوالي العاشرة، ولما رجع صباحًا كالعادة اكتشف الجريمة.

– هل تشك في أحد الزوار الأربعة؟

– أبدًا .. (ثم بتوكيد) أبدًا .. أبدًا.

– لماذا؟

– كانوا يحبونه وكان يعاملهم بعطف الوالد ورعاية الأستاذ، والعِلم عند الله، والكلمة الأخيرة لك.

وقلت لنفسي: أمامنا جريمة قتل، القاتل كان في داخل البيت وجدنا مفتاح البيت الخاص بالأستاذ في درج المكتب. وجدنا باب البيت ونوافذه سليمة، وكانت النوافذ مغلقة من الداخل. وكخطوة أولى حجزت عم عبده والطلبة الأربعة، وانطلقنا في قنوات التحريات.

بحثنا مصادر الثروة فوضح لنا أنه لا يملك إلا معاشه وحسابه في المصرف المتحصل من فوائد شهادات الاستثمار، وليس في ميزانه الصرفي ما يدل على أنه سحب مبلغًا أكثر من المعتاد صرفه كل شهر لتغطية نفقاته. ولم تدلنا التحريات عن الطلبة وعم عبده مواهب على أي علاقة مريبة أو شُبهة من الشبهات، وفُتِّشت البيوت تفتيشًا دقيقًا، وكان عم عبده يعيش في مسكن صغير هو وزوجه. أما أبناؤه الثلاثة فيعملون في السعودية. ولما سئلت زوجته عن ميعاد عودته ليلة الحادث، أجابت بأنها تنام مبكرة، ووضح أنه لا فكرة لها دقيقة عن الوقت. وكان بعطفة السد القائم بها مسكنه مقهًى عند المنعطف، شهد صاحبه بأن عم عبده غشِيَ المقهى ليلتها كعادته، فلم يتناقض ذلك مع أقوال الرجل الذي قال إنه قصد المقهى؛ ليعالج صداعه بالقهوة والأينسون وخلافه. أما عن الوقت؛ فلن يستطع الرجل أن يحدده لانشغاله المتواصل بعمله. وضحت لنا براءة الطلبة، فلم يبقَ في يدي إلا عم عبده مواهب. هو الذي يمكنه دخول البيت في أي وقت ودون عائق ثم يغادره بسلام، ولكن لماذا يقتل الأستاذ؟ والحق — وأُقرر ذلك من واقع خبرة ودراسة — أنه رجل ورع طيب مستقيم، وبعيد أن يكون حزنه على الأستاذ تمثيلًا أو زائفًا، وبعيد أيضًا أن يُوحي وجهه بالجريمة أو الشر، وغضبت حيال الغموض الجاثم، وتعلق الأمل

بالعلاقات الخاصة الخفية. وقلت لعم عبده مواهب: حدثني عن سلوك المرحوم كرجل لم يتزوج قط؟

فأجاب متجهمًا: لا أعرف شيئًا.

– تكلم. ألا تريد أن تُبرئ نفسك؟

– لي الله، لن يأخذني بجريمة غيري.

– لكل منا هفواته وعيوبه، فحذارِ أن تُدافع عن القاتل بحسن نية!

ولكنه أصرَّ على موقفه. وجاءني مُرشد باللبَّان الذي شهد بأنه رأى في بيت الأستاذ في أثناء تردده عليه امرأةً متوسطة العمر على جمال ملحوظ. وبعد مواجهة بين اللبان وعم عبده، قلت للأخير بحزم: هات ما عندك عن هذه المرأة.

فقال بقلق: ربنا أَمَر بالستر.

فقلت بحزم أشد: وأَمَرَ بعقاب القاتل، فتكلم لتخلص نفسك من الشبهة المُحيقة بك.

فاعترف قائلًا: هي أرملة على علاقة قديمة بالأستاذ، تعيش في أسرة فقيرة، ولكنها لا تتسامح فيما يمس العرض. ولو انكشف سرها لتعرضت للهلاك.

ووعدته بأن نستدرجها إلى التحقيق في تكتم. وعرفت ما يلزمني عن المرأة، مسكنها، أولادها، أخيها الميكانيكي المعروف بفظاظته، وغرفت أيضًا أن عم عبده كان يسفر أحيانًا بين الأستاذ والمرأة على كره شديد منه.

داخلني شعور بأن الحقيقة ستُقذف إليَّ بعد تمنعها العسير. ولما رأيت المرأة فتر حماسي. وجدت امرأة تكاد من سذاجتها أن تشارف البلاهة. وصارحتني بأنها استسلمت للرجل لشدة حاجتها ولعطفه وكرم أخلاقه، وأن موته سد في وجهها باب الرجاء. وقالت إنها كانت تزوره نهارًا تجنبًا لإثارة الشبهة عند أحد وخاصةً أخاها، وأنها لم تدخل بيته طوال الأسبوعين السابقين للحادث، مستشهدة في ذلك بعم عبده مواهب. ورجع الغموض إلى ما كان وربما أشد. ونشط خيالي في طرح الفروض، فحام حول أخيها الميكانيكي، ولكن قُطع الشك باليقين عندما أثبتت التحريات بأن الشاب كان محبوسًا في قسم الخليفة يوم الجريمة؛ لتورطه في مشاجرة. انتهى. لم يسفر التحقيق ولا التحريات عن شيء، وقُيدت الجريمة ضد مجهول. وقلت لنفسي وأنا من القهر في نهاية: هذه الأمور تحدث أيضًا!

– ها أنا أعود إلى الجريمة بعد انقضاء خمسة وعشرين عامًا على ارتكابها، وبعد أن تركتُ الخدمة منذ خمسة أعوام أو يزيد. أعادني إليها نشر «يوميات علاء الدين

القاهري». ورحت أقرأ بشغف مُدركًا الأسباب التي جعلت الأستاذ يُوصي بتأخير النشر ربع قرن؛ لتعرضها لأشخاص رأى من المستحسن ألا يهتك الستر عن أفكارهم إلا بعد وفاتهم، أو في الأقل بعد انتهاء خدمتهم الرسمية. وفي إحدى اليوميات قرأت:

«عم عبده مواهب صارحني برغبته في ترك خدمتي، فانزعجت جدًّا؛ لشدة حاجتي إليه خاصة في هذه المرحلة الحرجة من العمر والوحدة، ولأمانته واستقامته وطيبة قلبه وتقواه. وقلت له: إني أعاملك كصديق يا عم عبده.

فتمتم: لا يُنكر النعمة إلا لئيم.

– إذن لا تتركني، والعمل على أي حال أفضل من الفراغ.

فغمغم: لا حيلة لي يا سيدي.

– بل يوجد سبب، لا تُخفِ عني شيئًا.

فصمت مليًّا ثم قال: قلبي يقشعرُّ مما أسمع أحيانًا في مجالس الزوَّار!

فقلت بدهشة: لن يأخذك الله بذنوب غيرك، لك عليَّ أن أُسكت الحوار إذا دخلت الحجرة لخدمة ...

وما زلت به حتى عَدَل عن رأيه. ولكن يبدو أنه لم يكفَّ عن التنصت، وقد ضبطته مرة لِصْق الباب، وأنا ذاهب لبعض شأني فعاتبته عتابًا مرًّا، وذات يوم وهو يقوم على خدمة إفطاري، حانت مني التفاتة إلى مرآة، فلمحت صورته المعكوسة تنطق بالحنق والغضب، فاعترضتني كآبة وتساءلت: كيف أحتفظ برجل يضمر لي هذا الشعور الأسود؟!»

وفي مكان آخر من اليوميات وكظرف مشابه، قرأت هذه العبارة عن عم عبده مواهب:

«يجب التخلص منه في أقرب فرصة، وقد ناقشت مشكلته في إحدى الجلسات الثقافية، فأثنى الزوار عليه وقالوا: إنه مثَلٌ للاستقامة والطيبة، ولكني على خبرة بما يمكن أن يصدر عن هذه الأنماط إذا جُرحت ضمائرها، يجب التخلص منه في أقرب فرصة، مهما صادفني من صعوبات في إحلال آخر محله.»

امتلأت بالاستنارة متأخرًا جدًّا، وهتفت: كان القاتل بين يديَّ طوال الوقت!

الآن قد سقطت العقوبة، واندثر التحقيق، وتُوفِّي الكبار الذين باشروا التحقيق أو أشرفوا عليه، ولعل القاتل قد لَحِق بهم أو سبقهم إلى جوار ربه. وأمكنني أخيرًا أن أقف

على الباعث على الجريمة الذي ضللته وقتها، تُرى هل مات الرجل أو ما زال حيًّا؟ ولم أستطع مقاومة الرغبة في السعي وراءه رغم إفلاته القانوني من العقوبة. تمنَّيت أن أعثر عليه، ولو لأعلن انتصاري العقيم. ولن يتضح عقمه — لجهله غالبًا بالقانون — حتى أكاشفه بذلك.

وانتقلت من مصر الجديدة إلى مصر القديمة مدفوعًا بحب استطلاع ورغبة متوارية في الانتقام. وجدت عطفة السد كما كانت ببيوتها العتيقة، والمقهى القائم عند المنعطف لم يكد يتغير إلا وجه صاحبه. وكان عم عبده انقطع عن زيارة المقهى منذ سنوات، فطرقت بابه واقتحمت مسكنه .. استقبلني بدهشة، ببصر ضعيف، ولم يتذكرني، وطالعني بوجه كثير الغضون وسوالف ناصعة البياض، كالزغب تبرز من حافة طاقية بيضاء قلت له: إنك لا تتذكرني.

فبسط راحته متسائلًا فقلت: ولكنك لم تنسَ، ولا شك مصرع الأستاذ علاء الدين القاهري!

فومضَتْ في سحابة عينه نقطة لامعة، وقطَّب في حذر.

– أنا ضابط التحقيق، كلانا تقدم به العمر.

فتحرَّكت شفتاه من همس لم أتبينه، ولكني قرأت في صفحته أمارات الانسحاق.

وقلت بثقة: أخيرًا انكشفت الحقيقة، وثبت أنك قاتله!

واتسعت عيناه في ذهول، ولكنه خرِس فلم ينبس. وقام بجهد وصعوبة، ولكنه ما لبث أن انحط فوق الكنبة. أسند رأسه إلى الجدار ومدَّ ساقيه، وتقلصت عضلات وجهه نافثة زرقة ترابية، وفتح فاه، ربما ليقول شيئًا لم يقله أبدًا، ثم استسلم أمام قوة مجهولة، فمال رأسه على كتفه.

وجزعت فهتفت به: لا تخف. انقضى زمان الجريمة، اعتبر حديثي مزاحًا.

ولكنه كان قد أسلم الروح.

أقدمت على مغامرة لأحقق نصرًا عقيمًا، فبُؤْت بهزيمة جديدة أفقدتني ما كنت أحظى به من راحة البال. ومن حين لآخر أتساءل في ضيق: ألا أُعتَبر أنا أيضًا قاتلًا؟!

الخندق

رغم عنايتي الملحوظة بنظافة جسدي وصحتي العامة؛ فإن الإحساس بالقذارة والمرض يلح عليَّ كفكرة ثابتة أو جو ثقيل جاثم. لست أقيم في جسد وأطراف فحسب، ولكن أيضًا في شقة عتيقة بالية وعطفة هرمة تغوص في النفايات. تعرَّى السقف من الطلاء، وتكشَّف في مواضع عن عروق لا لون لها، وتشقَّقت الجدران في خطوط متوازية ومتقاطعة، وانفجرت الأرضية الأرضية عن نتوءات وثغرات تلاطم باطن القدم تحت الأكلمة المتهرئة. والسقف والجدران تنضح صيفًا بالحرارة بالمُحرقة، وترشَح شتاء بالرطوبة أو برشاش المطر. والسُّلم آخِذ في التآكل، ودرجة منه تصدعت، فتهاوى نصفها وأصبحت عثرة في طريق الصاعد والهابط، وخطرًا لا يُستهان به في ظلمة الليل. هذا بالإضافة إلى الشق الطولي الذي يسوخ في جناح البيت الخارجي الملاصق لدورات المياه، وهو جناح تقشر ملطه وكلسه وبرزت أحجاره. وعطفة الحسني اختفى طوارها تمامًا، ولا أحد يذكر أنه كان لها طواران سواي بوصفي من مواليد هذا البيت، بخلاف أسرتَي إبراهيم أفندي ساكن الدور الأوسط والشيخ محرَّم ساكن الدور الأرضي، اللتين وفدتا إلى البيت منذ عشرين عامًا على أكثر تقدير. على أيام صباي كان البيت كهلًا لا بأس به، والعطفة ذات أديم مبلط بالأحجار وطوارينِ، لا تقل في رونقها عن شارع الشرفا الذي تنحدر إليه. اختفى الطواران تحت الأتربة والنفايات، وهذه تتراكم يومًا بعد يوم زاحفة من الجانبين نحو وسط الطريق الضيق. وعما قليل لن يبقى للسكان إلا ممر كالخندق يذهبون منه ويجيئون، وربما ضاقت حافتاه عن أن تسع جسم ست فوزية حرم إبراهيم أفندي. يطبق على وجداني شبح القِدم وتوقُّع الانهيار وتفشِّي القذارة، فيطاردني الإحساس بالمرض والخوف أيضًا. وحيد في شقَّة تفرَّق ساكنوها بين البيوت الجديدة والمقابر، وموظف بالإضافة. موظف وحيد في بيت آيل للسقوط، يئنُّ في قبضة الغلاء، يتساءل عن مصيره لو وقع زلزال أو غارة

جوية في هذه الأيام المنذرة بالحروب، أو ماذا يحدث لو استوفى البيت عمره المتهالك فمات حتفَ أنفه، وبلا سبب خارجي. وأعقد العزم على مطاردة الهواجس بنفس القوة التي تطاردني بها، أن أسلم أمري لله، ألا أتعجَّل الهم قبل وقوعه، أتناسى همومي في المقهى بين الصحاب من الموظفين الكادحين، أو بين يدي التلفزيون، تلفزيون المقهى. غير أن الهم يرجع كأكثف ما يكون في اليوم الأول من كل شهر. يوم يحسب حسابه الشيخ محرم وست فوزية التي تنوب عن زوجها في المعاملات لقوة شخصيتها، كما أحسب حسابه ألف مرة. في هذا اليوم يهلُّ علينا عبد الفتاح أفندي ساعي البريد ومالك البيت القديم. رجل في الخمسين، ما زال متمسكًا بطربوشه، ثقيل الظل، ربما لا لعيبٍ فيه. أنتبه إلى حضوره عندما يترامى إليَّ صوت ست فوزية، وهي تنهره بخشونة وتُلقمه الحجر تلو الحجر. أما أنا فأعالجه بالكياسة ما استطعت. أستقبله وأجالسه على كنبة وحيدة، وأقدم له الشاي. ويطيب له أن يرد التحية فيسألني: بودي أن أجيء مرة، فأجدك مكملًا نصف دينك!

فأسأله وأنا أداري غصة: عندك عروس وزيجة بالمجَّان؟

فينفخ بخار الشاي ويحسو حسوة ذات فحيح، ويهز رأسه دون أن ينبس. وأقدم له الإيجار، ثلاثة جنيهات، فيتناولها باسمًا في سخرية، يفنِّدها بين أصابعه، يقول: أقل من ثمن كيلو لحمة، والاسم مالك بيت.

ثم يواصل متشجعًا بصمتي: أموال أيتام يعلم الله.

فأقول: مظلومان يتناطحان، ولكن ما الحيلة؟!

– لولا احتلالكم للبيت لبِعتُه بالشيء الفلاني.

ثم بنبرة وعظية: وهو آيل للسقوط، ألم تنذركم اللجنة؟

فأتساءل: وهل نُلقي بأنفسنا إلى الشارع؟!

أفتقد دائمًا الشعور بالاستقرار والأمان كما أفتقد الإحساس بالنظافة والصحة. على ذاك فحالي خير من الآخرين، فإني على الأقل وحيد. عن عجز لا عن رغبة ولكني وحيد. حبيس كَبْت ووحدة وبيت آيل للسقوط وعطفة تُدفن تحت النفايات. أقوم بالمعجزات لأفوز بلقمة هنية ولو على فترات من الزمن، وكسوة تستر ماء وجه مدير إدارة فرعية. أحلم بمسكن مما أرى في إعلانات الجمعيات التعاونية، وعروس مما أشاهد في صفحة العرائس الأسبوعية، أو حتى مثل ست فوزية. أتعزى بقراءة «حلية الأولياء»، بحياة الأولياء الصالحين الزاهدين المتوكلين الطارحين لهموم الدنيا تحت أقدامهم واللائذين بطمأنينة خالدة. غير أن خبرًا عارضًا عن سقوط منزل أو عن إخلاء عمارة بقوة الشرطة عقب

تصدُّع جانب منها، يهزني من الأعماق، يستردني من فردوس الأولياء، يملؤني بالرعب، أين يذهبون؟ ماذا يبقى لهم من المتاع؟ كيف يتصرفون؟! ويتضاعف إحساسي بالوحدة رغم انتمائي إلى أسرة كالقبيلة متناثرة في أنحاء المدينة الكبيرة. إخوة وأخوات وأقارب ووحدة خانقة! العواطف طيبة، ولكن لا بيت يُرحب بجديد. كل بيت بالكاد يسع سكانه. وكل فرع ينوء بهمومه. قد أجد ملاذًا ليوم أو أسبوع. أما الإقامة الدائمة فهي ورم سرطاني لا يُحتمل. وأُهرع إلى المقهى فهو جنة المأوى. أجتمع بالزملاء فأستروح العزاء في تبادل الشكوى. ومن عجب أنني معدود بينهم من المحظوظين لتوحُّدِي وخفة حمولتي. وحدتي المرعبة قيمة محسودة. يا بختك لا زوجة ولا بنت ولا ولد. لا مشكلة أجيال ولا زواج بنات ولا دروس خصوصية. بوسعك أن تأكل لحمة مرة في الأسبوع وربما مرتين. مسكنك الوحيد الذي لا يشهد شجارًا ولا نقاشًا. وأهزُّ رأسي في رضًا ولكني أتساءل في باطني: هل نسوا آلام الكبت والوحدة؟! غير أني أجد في أنينهم المتواصل سلوى مثل دفقة ضوء تُلقَى على قبر. ويقول لي أحدهم مرة: عندي حل لكافة مشكلاتك.

فأنظر إليه باهتمام وأنتظر، فيقول: زيجة، توفر المسكن واليسر، ولا تكلفك مليمًا واحدًا.

ثم فيما يشبه الهمس: امرأة تناسب المقام.

وأتخيل في الحال امرأة لا تملك من الأنوثة إلا شهادة السجل المدني. وسيلة شاذَّة من وسائل الإنقاذ مثل الانحراف والجرائم الخفية، طوق نجاة مثل جثَّة طافية. الحق أنني فقدت الأمل، ولكني ما زلت محتفظًا بالكبرياء. من أجل ذلك يَصِفونني بالطيبة كمرادف للبلاهة. أتصبَّر وأقاوم. أعود إلى كتاب «حلية الأولياء» وأقرأ جرائد المعارضة. ربما ألجأ أحيانًا إلى حيل الطُّفَيليين ولكنها زلة تُغتفر. أزور بيوت الأهل في غير أوقات الغداء؛ إمعانًا في إظهار البراءة على أمل أن أُدعى إلى وليمة، ولكن روح العصر لم تعُد تؤمن بهذه التقاليد العريقة. ويختلف الأمر بالنسبة للمواسم والأعياد فيسعدني الحظ بوليمة أو وليمتين في العام. وما إن يتهادى إليَّ صوت ربة البيت وهي تقول: ما أنت بالغريب ولا بالضيف، اعتبر نفسك في بيتك.

ما إن تلوح هذه الإشارة الخضراء، حتى أنقضَّ على المائدة مثل نسر جائع، وكأنما أشهد العشاء الأخير. الأدهى من ذلك كله أنني مواطن عادي، لا طموح عنده ولا خيال. نلت من التعليم ما يكفي، وألحقتني القوى العاملة بإدارة ما. ما تمنيت بعد ذلك إلا بنتًا طيبة وشقة صغيرة. انقلبت الدنيا، لا أدري كيف، وماجت بالعجائب. وتحددت إقامتي في

البيت المتهالك. وكلما ارتفع مرتبي انخفض كأنه فزورة من فوازير رمضان. ذاب شبابي في التضخم، وكل يوم أغالب أمواجًا هادرة تهددني بالغرق. ويقال لي: هاجر ففي الأسفار مليون فائدة.

ولكني بطيء الحركة ومشدود للأرض، ولم أستسلم لقبضة اليأس. من حين لآخر تومض في سمائي المُظلمة بارقة. تنعشني تصريحات الوزراء وطلقات المعارضة ونوادر الأولياء. ألم يكن ابن حنبل يتصدق بالجوائز السنية وهو يتضوَّر جوعًا؟ وأتسلى أحيانًا في نافذتي، وأنا أرقب ست فوزية وهي تتبختر في الخندق بين حافتيه المطبقتين. وذات يوم قررت أن أزور مدفن الأسرة بعد انقطاع طويل باعتباره الملجأ الأخير إذا وقعت الواقعة. هناك توجد حجرة الرحمة كما توجد دورة للمياه، فهي مأوى من لا مأوى له.

رأيت القبرين القديمين تحت السماء وشُجيرات الصبار في الأركان. أما حجرة الرحمة إلى يمين القادم؛ فقد انقلبت خلية نحل تموج بالنساء والأطفال والأثاث البالي المكوم ومواقد الغاز والحلل، وتعبق بروائح التقلية والفول والباذنجان والزيت المقلي. رمقتني أعين المستوطنين بتوجس، وقرأت في أعماقها نذر التحدي. ابتسمت في استسلام، ووقفت قبالتهم متحررًا من القوة والمجد. وقلت لامرأة ذكرني حجمها بست فوزية: لا بأس، ولكن ما العمل لو احتجت إلى الحجرة كمأوى؟

فقالت ضاحكة: أنت صاحب حق ونحن ضيوفك، ننزل لك عن ركن، والناس للناس.

فقلت ممتنًا في الظاهر: جوزيتِ خيرًا.

ومرقت إلى القبرين لأتلو الفاتحة. تخيلت الأجيال التي لم يبقَ منها إلا هياكل عظمية. رعيل من أهل الحِرَف والتجار والموظفين وستات البيوت، وخالٌ لم أُدرك عصره، ولكني سمعت الرواة يحكون أسطورة استشهاده في ثورة ١٩١٩.

وقفت مليًّا وأنا أناجيهم بصوت غير مسموع: أمدوني يرحمكم الله بإيمانكم، وهبني يا خالي شيئًا من شجاعتك!

عندما يأتي الرَّخاء

مات الأب ففقد الابن عرشه؛ ذلك أنه كان وحيد أبوَيه، وليَّ العهد المدلل، المغموس في نعيم الحنان. ما إن بلغ الحُلم حتى زوَّجه أبوه ليفرح به، فأنجب بدوره ابنًا وحيدًا، وزوَّجه في حياة أبيه ليفرح به أيضًا. أما الأب المدلَّل فأفسده الدلع، فقعد عن التعليم دون أن يحصل على الابتدائية. وأما الحفيد فقد نال التجارة الثانوية بطلوع الروح. وعقب وفاة الأب (الجد) وجَدَ الخليفة الأول نفسه وحيدًا عاطلًا، والخليفة الثاني كاتبًا على الآلة الكاتبة.

– كان أبي سمسارًا رزقه موفور، ولكن ينفق عن سعة، عِشنا في حياته كالملوك غير أنه لم يخلِّف شيئًا.

أورثه بيتًا من ثلاثة أدوار ودكان بالسيدة، يقيم هو في دور وابنه في دور، ويقبض إيجار الدور الثالث والدكان ستة جنيهات كل شهر، مثل مرتَّب ابنه. أجل، كان المبلغ كافيًا لمعيشة أسرة في مطلع القرن، ولكنه لا يهيِّئ لها أي لون من ألوان الترفيه المشروع.

– كيف أطيق هذه الحياة؟! أنا ربيب النعيم، طعامي طعام ولائم، وملبسي أنموذج للأناقة، مجلسي في قهوة الشيشة، ونزهتي عند كشكش بك ومنيرة المهدية؛ كيف أطيق هذه الحياة؟

ويقول له ابنه معاتبًا: لِمَ عجَّلت بتزويجي؟ .. ها أنا أبٌ وأنا دون العشرين.

فيجيبه متنهِّدًا: إنما الأعمال بالنيات يا بُنَي! أنا أيضًا وجدتني زوجًا لبنت تكبرني بأعوام، قبل أن أفرِّق بين الألف والباء!

وكان المُستحقَّ الوحيد لوقفِ جدِّه للمرحومة أمه، فزار لأول مرة إدارةَ الأوقاف الأهلية مسوقًا بنبضة أمل، رغم ما سبق له علمه عن طريق أبيه. وقال له الموظف المختص: ثروتك على الورق ضخمة؛ أربع قطع أراضي فضاء بالمنشية، ومال بدل ناتج عن دخول قطعة خامسة في التنظيم مقداره أربعون ألفًا من الجنيهات.

فتساءل بصوت متهدِّج؛ كيف يمكنه الانتفاع بثروته؟ فقال الموظف: لا شيء للأسف، الأرض وقف لا تُمَس، والمال وقف لا يُمَس، وهو مُودَع في البنك بلا فوائد؛ لأن الفوائد ربًا، والربا حرام، وكل حرام في النار.

وهذه النار التي تندلع في قلبه وآماله؟! لم يعد له من حديث إلا الوقف والحرمان. ويطوف بالأراضي الفضاء المطروحة كخرائب، ويسأل عن أجر المثل، فيحسب ثمنها بما لا يقل عن ثمانين ألفًا من الجنيهات بالإضافة إلى مال البدل، وراح يهذي بالثروة والحرمان والفقر والحظ.

وقال له عمه: بِعْ بيتك واستثمِرْ ثمنه في عمل نافع.

ولكنه يقول معترفًا بالحقيقة الصخرية: لا أصلح لشيء يا عمي.

ويستطرد باسمًا في حياء: الله يغفر لك يا أبي.

والزمن يسترق الخُطى، لا يُبالي ولا يُمهل، فيتوغل الرجل في الشباب حتى يرقى ذروته ويُطل على الرجولة دون أدنى رغبة فيها. تتبلور شخصيته بين الأصحاب والأقارب نمطًا للإنسان الشاكي الباكي، مجنون الوقف ومال البدل وأجر المثل. يضحك منه في الخفاء مَن يشفق من الجهر، ويعالنه بالسخرية مَن يضيق به، ومن وراء وراء يقولون عنه: سيُجَنُّ ذات يوم.

– بل جُن فعلًا وما كان كان.

وتغزو مظاهر الحضارة حتى الأحياء الوطنية. وجاوزت السيارات حدود النُّدرة، وكذلك المطاعم والملاهي. وانطلق الرعيل الأول من الحِسان سافراتِ الوجوه بأعين مكحولة وشفاه مصبوغة. هذا وامرأته منهمكة بين الطهي والغسيل والمكنسة، فبرزت الست العاملة وتوارت الأنثى المغرية. وهو خلقه الله جميلًا يحب الجمال، فتنمَّر وتوثَّب للنزاع والنكد. تقول امرأته: ما حيلتي؟! ابتُليت به أفظع مما ابتُلي هو بالحياة.

ويقول هو: أنا غنيٌّ محكوم عليه بالفقر، والدنيا حلوة.

ويقول له عمه: الدنيا حظوظ، ولله في خلقه شئون، والسعيد من يمتثل لإرادة الله.

فيقول: أنا مظلوم .. مظلوم .. مظلوم.

– وما الحيلة يا ابن أخي؟

– أحرام أيضًا أن أشكو الظلم؟!

فيقول الرجل مداريًا ضيقه بابتسامة لا لون لها: أليس لكل إنسانٍ همومه؟!

وتتوثق العلاقة بينه وبين إدارة الأوقاف؛ يصبح نجمًا في سمائها المنسوجة من خيوط العنكبوت، ويمدون له في حبل الأمل.

– ألا تتابع حملات الجرائد على جمود الوقف؟

– انتظر خيرًا قريبًا.

وتنشب الحرب العالمية الثانية، يتسنَّم ذروة الرجولة فينحدر نحو الكهولة، ويتلقى من الغيب نُذرًا في صورة شُعيرات بيضاء لمعت في سوالفه وشاربه الذي يعتز به أيَّما اعتزاز. وتشرئب الأسعار برءوسها في بُطء واستمرار، فيهتز الباقي من أمنه. على حين تنتشر مظاهر الحضارة واللهو، وتتلألأ الشوارع بالسيقان والأذرع والنحور، ويتدفق المنهل العذب يدعو الشاربين للورود، وتُسرع زوجته إلى الكهولة والخراب.

– كان في البيت رجل واحد، فأمسى فيه اثنان!

وتقول امرأته لجارة لها: لو تحقَّقت أمنيته في الصباح لتزوج عليَّ قبل مجيء المساء، لا حقَّق الله أمنيته!

ويقول له ابنه: لم تعد الحياة كما كانت، القروش مثل العصافير سرعان ما تطير.

ويقول له موظف الوقف الأهلي: لا يمكن مواجهة أعباء الحياة برِيع بيتك، انزل عن كبريائك وحرَّر عريضة بطلب شيء من الخيرات.

وبعد تردد راقت له الفكرة. ولما لم يكن يُحسن الكتابة، فقد تولاها عنه الرجل. وقال له برجاء: ربنا أمر بالستر.

فقال له الموظف: سرُّك في بئر.

وتزوره مندوبة الوزارة لإجراء التحريات التقليدية. تتفقد البيت وأثاثه القديم وهو يتابعها بكآبة، ثم يقول لها بدافع من كبريائه: سلي يا ابنتي عن أصلي في إدارة الأوقاف.

فتقول له بعذوبة: أعرف كل شيء.

وانتبه إلى نضارة وجهها وهندسة جسمها لأول مرة.

سألها في دعابة: ألا تمنح الوزارة بدلًا من المرتب أشياء عينية؟

فتساءلت في براءة: مثل ماذا؟

فقال ضاحكًا: مثلك يا ابنتي!

فودَّعته ضاحكةً. وصرخت زوجته: تحت سمعي وبصري ولا تتورع عن المغازلة؟!

فقال بجدية مصطنَعة: غازلتها بالأصالة عن نفسي، ونيابة عنك أيضًا.

فصاحت: ما يؤدِّبك إلا الفقر.

وتقرَّر له مرتب من الخيرات مقداره ثلاثة جنيهات شهريًّا.

وسأل الموظف ممتعضًا: ثلاثة جنيهات؟!

فقال الرجل: مناسب جدًّا بالقياس إلى أمثاله.

– لا يساوي ما بذلت من كرامتي.

– الأُسَر التي أناخ عليها الدهر أكثر مما تتصور.

على أي حال زار المفتِّشة في إدارة التحريات؛ في الظاهر ليشكرها، وفي الحقيقة ليتملى شبابها ونضارتها. ورجع إلى بيته وفي قلبه حلم، وأنجب الحلم أحلامًا أخرى عن فيلا وسيارة ومائدة. أما الواقع فلم يتمخَّض إلا عن غلاء يرتفع، ومغريات تنتشر، وشيب يتفشَّى، وضغط دم — ذلك الداء المتوارث في أسرته — يستقر. وتمزقت روابط الزوجية حتى حل الكره محل الرحمة. تقول له: لا أرى في وجهك إلا العُبوس.

فيقول: حب الحياة ليس جريمة.

– اشكر ربك على الابن والصحة.

– ابني يتأوه وصحتي تلِفَت.

– إني رفيقة عمرك.

– هذه هي المصيبة.

– تأخذني برتقالة وتعرض عني قشرة.

– بل قشرة من أول يوم.

ورقَّ الابن لأمه، فاقترح عليها أن تقيم معه بعض الوقت، ولكنها قالت له معتذرة: سيبحث عن خادمة، ولا أستبعد أن يتزوجها.

وتتقدم الأيام فيكثر كل شيء سيِّئ، ويقل كل شيء حسن. ويتلقى الرجال أنباء قيام ثورة يوليو وهو يعاني من أوجاعه، فلا يثير اهتمامَه أيُّ حدث عام.

ويتلقى بعد ذلك أنباء حل الوقف وتوزيعه على أصحابه، وهو طريح الفراش بصفة نهائية. ويسرِّح بصره في الغيب طويلًا، طويلًا، طويلًا، ثم يتُمتم: حكمتك يا رب!

عندما يأتي المساء

تنفجر عواصف الخماسين الغبراء الساخنة في عز أيام الربيع. توفيت الست الكبيرة عن ثمانين عامًا مُخلفةً لابنتها فيلا بالهرم وبضعة آلاف من الأموال السائلة. وكانت الابنة الستينية تقضي مع زوجها السبعيني الفترة المتبقية من العمل يظلهما الوفاق والهدوء واليسر. وحركت الثروة الطارئة الطموح إلى حياة جديدة، فقالت الزوجة: نستطيع الآن أن نعيش في فيلا جميلة بالهرم، وأن نُغادر هذا الشارع الكئيب.

فتجلت في عينَي الزوج نظرة فاترة وغمغم: الهرم؟

ثم واصل: شقتنا مريحة، عِشرة عمر طويلة، بدأ بشهر العسل، وجميع المعارف والأحباب حولنا.

فقالت بازدراء: لو تكن جنة لحق لنا أن نملَّها.

ولم تأخذ معارضته مأخذ الجد، وراحت تفكر بصوت مرتفع: الفيلا تحتاج لتجديدات بسيطة، وشيء من الديكورات، وبها أثاث يمكن الاحتفاظ به وبيع ما يماثله من أثاثنا مثل حجرة السفرة والمطبخ، ويلزمنا شيء من التنجيد أيضًا. النقود متوفرة والحمد لله، ومما يزيد من مزاياها أنها تقع في شارع داخلي مسفلت ومشجر وهادئ بالقياس إلى الشارع العمومي.

واعترت الزوجة كآبة، فراح يفكر بصوت مرتفع أيضًا: بين الجناين موقع عتيق حقًّا ولكن العمارة جديدة نسبيًّا، شُيدت منذ خمسين عامًا، ومؤكد أنها تستطيع أن تحافظ على صلاحيتها خمسين عامًا جديدة، الشقة لا ينقصها شيء، شمسها متوفرة وهواؤها طيب، وأهم من ذلك كله يوجد حولنا جيران العمر. أنا رجل عجوز، فراغي طويل، ولولا بقية من أصدقاء ما تحملت الحياة، بنتي الوحيدة وزوجها في السعودية، والأقارب لا يتلاقون في هذا الزمان إلا في الجنازات الهامة!

وحدجته بنظرة أطل منها العناد والتجهم، وتساءلت: أنُضحِّي بما أتاح الله لنا من عيشة راضية من أجل مزاجك الشخصي؟!

اشتعلت أعصابه السريعة الاشتعال، وقال بمرارة: عنادكِ يفترس إنسانيتكِ، قدِّري حال رجل لم يعُد له حظ من الدنيا إلا نفرًا من الأصدقاء.

– حسبت أن لك زوجة أيضًا!

– طبعًا .. طبعًا .. ولكن الرجل لا يستغني عن أصدقاء العمر!

– التلفزيون فيه الكفاية، ولكنك مدمن سهر.

– كُفِّي عن العناد وفكري بإنسانية.

– فكر أنت بشيء من العقل.

في البدء كان الحب. في الشباب الباكر كان الزواج. هو مهندس ري وهي ست بيت وحاملة للابتدائية أيضًا. أنجبا ابنة وحيدة، طبيبة متزوجة من طبيب، ويعملان في السعودية. عبرا سنوات التعارف والتوافق وعثرات الاختلاف في الذوق والعادات بنجاح، حتى استقرا في سَكينة الشيخوخة. رغم ذلك قال لنفسه بقلَق: إنها عنيدة، وإذا تسلطت عليها فكرة انقلبت حجرًا صلدًا لا سبيل إلى التفاهم معه. وقالت لنفسها: إنه طفل مدلل عصبي ويبيع بالدنيا مزاجه. وشرعت في تجديد الفيلا، فانقبض صدره وغشِيَته سُحب المخاوف. وقال لها: أجِّريها مفروشة تدر عليكِ الشيء الفلاني.

ولكنها قالت بإصرار: ما حاجتنا إلى النقود في هذه السن؟ ولا ابنتنا في حاجة إليها، ولكن من حقنا أن ننعم بشيء من الراحة والجمال وحسن الختام.

– وأصحابي؟! تذكَّري أزمة المواصلات، الانتقال معناه العُزلة، وفي العزلة قضاء عليَّ!

– ربنا يكملك بالعقل وسداد الرأي.

لم يعشق هواية مما تثري الفراغ. تُرك لتيار الزمن بلا طوق نجاة. يستيقظ من نومه حوالي الظهر وينتظر المساء. تديُّنه صادق وبسيط لا يشغل له بالًا. يُهرَع مع الليل إلى منظرة صديق على المعاش كان مُعلم لغة عربية، يملك بيتًا صغيرًا ذا حديقة صغيرة، ويوافيهما ضابط جيش عجوز على المعاش أيضًا وصيدلي قبطي اعتزل العمل. يتسامرون، يلعبون النرد، يحتسون الشاي أو المرطِّبات تبعًا للفصول، يدخنون، ثم يفترقون عند اقتراب الفجر إلى مساكنهم المتقاربة في «بين الجناين». في الزمان الأول كانت البيوت تطل على الحقول والحدائق، وتعبق بشذا الحِناء وتغوص في الهدوء. اليوم اكتظَّت بالبيوت والسكان، والخرائب الموقوفة التي انقلبت أسواقًا لتجارة الخردة وقطع الغيار القديمة،

وازدحم الطريق بالصِّبْية، وصار ناديًا أهليًّا للعب الكرة، ولكن القلب ما زال يجِد سلواه في المناجاة والسَّمَر. ماذا يتبقَّى لي في الحياة إذا حُرم من هذه السلوى الباقية؟! وقال لها أخيرًا بنبرة حاسمة: لن أُغادر هذه الشقة إلا إلى القبر.

فقالت بحنَق: إذا تم إعداد الفيلا؛ فلن أبقى هنا لحظة واحدة.

فارتفع صوته وهو يقول: أنتِ امرأة عنيدة بلا قلب.

فهتفت: أنت أناني لا يهمك إلا مزاجك.

– لي عليكِ حق الطاعة.

– الطاعة من حق العاقل.

– قلة أدب.

– أنا بنت ناس علموا الناس الأدب.

– لي الجنة على احتمال عِشرتكِ.

– الحق أني أنا الشهيدة، لولا صبري لعشت طيلة عمرك وحيدًا.

– أنا؟!

– نعم .. آه لو أفرغَ قلبي ما فيه!

– جنس جاحد حقيقة.

– أَجْري عند الله وحده، هل نسيت افتضاح سلوكك عام ١٩٢٦؟!

– ١٩٢٦! يا ألطاف الله! إني لا أتذكر ما يقع بالأمس.

– ولكنني لا أنسى، ولا أنسى فجورك، وأنت مفتِّش ري بكفر الشيخ في ١٩٣٠!

– حقًّا إنكِ ذاكرة مذهلة لحفظ أنباء السوء، وتنسين ما عدا ذلك، نسيتِ على سبيل المثال أنني ضحيت بأجمل عروس من أجلك.

– بل سال لعابك دائمًا طمعًا في مساعدات بابا الله يرحمه .. أناني ونفعي!

– قذارة وقلة أدب.

– اخرس!

وانتفض واقفًا ووجهه يموج بالغضب، فانتصب عنقها في تحدٍّ رغم توقعها عدوانًا قياسًا على مرات متباعدة، لا تستطيع أن تنساها أبدًا. غير أنه كظَم غيظه، وقال وهو يغادر الحجرة: ليكن في علمك أن مغادرة الشقة تعني الطلاق.

فصرخت: إني أُرحب به، وإن جاء متأخرًا.

وعلى أثر رسالتين تلقتهما من الأم والأب، حضرت الابنة من السعودية دون إبطاء. انفردت بالأم محاولة إقناعها ففشلت، ولم تكن أكثر توفيقًا مع أبيها. وجمعت بينهما وقالت: من المُبكي والمضحك معًا أن يجري للطلاق ذكر بينكما في هذه المرحلة من العمر، فليغفر الله لكما هذه السقطة اللسانية الشنيعة.

ونقَّلت بينهما عينًا حزينة وواصلت: انتقلي يا ماما إلى الفيلا، وابقَ يا بابا في الشقة، وأجِّلا قراركما الأخير للزمن والوحدة.

وشملهم صمت ثقيل خفَّفته بدعابات متكلفة صدرت عن نفس مليئة بالشجن، ثم ودعتهما راجعة إلى مقر عملها، وقد اقتنع كل طرف بأنها منحازة إليه في أعماقها، وإن أبت أن تُعلن رأيها مجاملة للطرف الآخر.

ووقع الانفصال ممزِّقًا لأول مرة وحدةَ حياة مشتركة طويلة العمر. انتقلت الزوجة لتستقبل حياة أنيقة ثرية مترعة بالوحشة. ولبث الزوج في شقة مقفرة عارية الحجرات إلا حجرة نومه المكونة من فراش مفرد وصُوان قديم وكليم صغير، واقتصر المطبخ على الأوعية والأواني الضرورية وموقد بوتاجاز صغير ومائدة ذات مقعد وحيد وفريجدير لحفظ الطعام. وتم الاتفاق على أن تُجهِّز له طعامَه الأسبوعي طاهيةُ الأسرة في يوم معين، على أن يقوم هو بإعداد الوجبات وغسل الأواني. وكان ينام نهاره كله هربًا من وحدته، وينتظر على لهف ميعاد السهرة التي يمارس فيها حياته الحقيقية. وحاول الأصدقاء أن يجدوا للمشكلة حلًّا آخر ولكنه قال: لا تشغلوا بالكم يا جماعة، المهم أن تسعفني الصحة حتى النهاية.

واعتبرت الزوجة أن كل يوم يفوت من غير أن يُقِرَّ بخطئه إهانةً مُتجددة لكرامتها وجرحًا يغوص في كبريائها. ويشتد حقدها وغضبها، وتعالج الوقت الطويل الملقى عليها بزيارة الأقارب لتشريحه بلا رحمة وفضح ما خفي من مساوئه. ويبلغه ذلك فيرد اللطمة بعشر أمثالها، حتى تجسدت حياتهما المشتركة في صورة سوداء تثير الفزع. وجرى الزمن والخصام يزداد سوءًا وفظاعة. وانعقدت السهرة ذات ليلة وهو غائب على غير عادة، ولكنه جاء متأخرًا عن موعده، وهم يتجاذبون القلق والظنون. وقال كالمعتذر: شعرت بوعكة مما يطرأ في تغير الفصول.

وكانت الوحدة التي يعيش مهملًا في طياتها تحزنهم، فأقبلوا يناقشونها بجدية: لا تأمن للحاضر، وعليك أن تفكر في المستقبل.

فقال بهدوء وهو يداري ضيقه: فعلت ذلك كثيرًا!

– وكيف انتهيت؟

– قررت أن أكف عن التفكير.

وضحك ثم واصل: أعرف ما يقلقكم، ماذا أفعل لو أقعدني المرض، أو حضرني الموت! سأكون سعيدًا إذا قدر لي موت خاطف، وإن تكن الأخرى؛ فما جدوى التفكير إلا مكابدة الهم قبل وقوعه؟

– ولكن لكل مشكلة حل.

فهتف: فات أوان الوفاق، ثم إنها عنيدة، والاستسلام يعني بالنسبة لي انتحارًا بطيئًا.

وضحك عاليًا وقال: إذا حم القضاء، وجدني الموت وحيدًا لا مفرَّ، وما عليكم إذا تخلَّفتُ ليلة، ولم يُفتح بابي إلا أن تتخذوا الإجراءات المألوفة، وآسف مقدمًا على إزعاجكم.

تحت السمع والبصَر

حقًّا إن الشارع خالٍ أو شبه خالٍ فيما يبدو، ولكن لا يخلو شارع من آدميين. إنه شارع جانبي يوصل بين طريقين عموميين. وهو سكني لا توجد به إلا دكان كواء. مع هبوط المساء من فوق رءوس الأشجار على الجانبين أغلقه صاحبه وذهب. سبحت أضواء مصباحين في أول الطريق وآخره في العتمة المتزايدة، فأضفَتْ على الجو لونًا غامضًا بين النور والظلام. واستقرت سيارتان متباعدتان في موقفَيْهما بحذاء الطوار مسربلتين بغطاءين من الشمع الرمادي، وانتظرت بقية الفراغات السيارات القادمة. وخيَّم على الشارع هدوء خامل جدير بمعبر نادر الرواد، وأضاءت نوافذ المساكن بالأنوار، وهي مفتوحة لتلقِّي نسائم الربيع .. من أجل ذلك انتشرت أصوات تلك المشاجرة الزوجية من إحدى النوافذ، فبلغت النوافذ القريبة وتمادت في ذيوعها حتى كدَّرت هدوء الشارع.

– أنت وحش.

– أنتِ مجنونة.

– لن أبقى في هذا البيت ساعة أخرى.

– مجنونة.

– في يدي الدليل، مصيرك المحتوم مستشفى الأمراض العقلية.

– مصير أمك وأخواتك.

– تحطمين تحفة ثمنها مائة وخمسون جنيهًا!

– سأشعل النار في هذا البيت العفن.

ويعلو الصراخ مختلطًا بصوت هادر ومزيد من طقطقة التحطيم مصحوبة بعويل أطفال. ومر عابر بالشارع فتوقف قليلًا تحت النافذة، ثم ضحك طويلًا وواصل سيره. وتجلت أشباح آدميِّين في النوافذ القريبة. ولما استمرت المعركة نوقشت على نطاق واسع.

– خناقة حامية.
– ليست الأولى.
– لكنها الأعنف.
– ألا يمكن عمل شيء؟
– مثل ماذا؟
– أنتدخل مثلًا؟
– لكننا لا نعرفهم، نتقابل أحيانًا في مدخل العمارة فلا نتبادل تحية.
– الواجب.
– قد يسوءهم ذلك.
– لن تنتهي الليلة على خير.
– ربنا موجود.
– الرجل مجنون وبريق عينيه المخيف لا يُنسى.
– لا تبالغي، هي أيضًا لها حركات عصبية مريبة.
– هو السبب هذا واضح.
– أو العكس تمامًا وهو ما أعتقد.
– لكل رجل شيطانه.
– ولكل امرأة.
– الرجال ظالمون بالفطرة.
– ما هم إلا ضحايا.
– ضحايا؟!
– الله شهيد.
– معركة غير متكافئة وسيقع أذًى لا شكَّ فيه.
– حطمتْ في غضبها تحفةً ثمنها مائة وخمسون جنيهًا.
– من عذابها أو جنونها.
– من أدراك أنتَ؟
– أهذه حنجرة امرأة عاقلة؟!
– أفقدها وعيها.
– المعركة تشتد ولا أحد يبالي بالأطفال.
– أمه وأخواته وراء ذلك كله.

– لا، المسألة أخطر من ذلك، فتشي عن الميزانية.
– يُرى كثيرًا وهو يشتري الخمور.
– هي أيضًا متبرجة أكثر من اللازم.
– ألا ترى أن المعركة لا تقف عند حد؟
– أجل اشتد النزاع وارتفعت الأصوات أكثر، وتوكد أن الليلة لن تمر بسلام.
– اترك ذراعي يا مجرم.
– مجنونة لا تحسب حسابًا للفضيحة.
– دعني أطلب النجدة.
– إذن أطلب مستشفى الأمراض العقلية.
– تضربني؟! ستدفع ثمن اللطمة غاليًا.

وينفجر صوات مخيف، ثم ينكتم الصوت تحت ضغط راحة يدٍ فيما بدا. ولأول مرة تجيء فترة سكون عدا عويل الأطفال، وتمتد دقائق وإذا بالصوت يهبط إلى الشارع. شبح المرأة يُغادر باب العمارة مهرولًا نحو الطوار الآخر. تتبعها الأعين على ضوء المصباح البعيد.

– هربت من البيت.
– لعله الحل الوحيد. بملابس البيت وغالبًا لا تملك مليمًا.
– تُرى أين يقيم أهلها؟
– هل نتركها في الطريق؟
– لو آويناها لوجدنا أنفسنا طرفًا في المعركة.
– كيف تتصرف المسكينة؟
– تستقل تاكسي، وهناك ستجد مَن يؤدي عنها الأجرة، لم يتحرك أحد لنجدتها.
– مرةً رجل تدخل بحسن نية، فاتهمه الزوج ووقع في مصيبة.
– يا لها من دنيا مُخيفة!
– ما باليد حيلة.

وقبل أن تبلغ المرأة منتصف الشارع، اندفع شبح الزوج من باب العمارة، فاشتعل الاهتمام لأقصى حد. جرى نحو المرأة حتى أمسك بها، تراءت وهي تقاومه وتراءى وهو يجذبها بشدة. صرخت مستغيثة بالناس فاشتد في جذبها، وبلغ الصراع أعنف أحواله. ويمر عابر جديد للشارع، فيقف على مبعدة ويهتف: كفَى هذا لا يليق.

فصاح به الزوج: ابعد وإلا حطمت رأسك.

يبتعد الرجل خطوات، يتردد قليلًا ثم يمضي في طريقه. وتنطلق من حنجرة الزوج صرخة كالعواء: تعضينني يا كلبة .. سأقتلك.

ويركلها ركلة حانقة غاضبة متأججة بالرغبة في الانتقام، فتقع المرأة متلوية صارخة. ولم يقنع الرجل بذلك، فما زال ألمه الحاد يستفزه إلى المزيد، فعدا نحو العمارة صائحًا: سأذبحك عليكِ اللعنة، وعلى الدنيا ألف لعنة.

وسرى الرعب في المُطلين من النوافذ.

– ركلها ركلة قاتلة.

– ولكنه جُن وسيرجع بسكين يُجهز بها عليها.

– لا، مجرد كلام.

– نطلب النجدة.

– سنصبح أسرى إجراءات معقدة حتى يصدر الحكم.

– لا بد من طلب النجدة.

– سيصدق علينا المثل القائل: خيرًا تفعل شرًّا تلقى.

– هل نتركها ملقاة حتى تُذبح؟

– لن يحدث شيء، هي عضته وهو ركلها وانتهى الأمر.

– نذهب إليها؛ فقد تكون في حاجة إلى إسعاف.

– ليس الآن فقد يرجع المجنون!

وأصر رجل في العمارة المقابلة على الطوار الآخر على طلب النجدة. وطلبها بالفعل، وحثها على الإسراع، وسُئل عن اسمه ورقم تليفونه، وهمس لزوجه بذلك، فحذرته العواقب فأغلق السكة. أما الزوجة فمضت تزحف على أربع، وتئن وتستغيث وقد بُح صوتها. وهرع نحوها عابر جديد فانحنى فوقها، وحاول مساعدتها على القيام وهو يتساءل عما حل بها. وعند ذاك ظهر الزوج مرة أخرى، وانقضَّ نحو المرأة رافعًا يده بالسكين. رآه الرجل الذي خف لمساعدة الزوجة ففزع من منظره، وفزع أكثر لما رأى السكين في يده. وتراجع مهرولًا وهو يهتف: اعقل .. ستُلقي بنفسك إلى الهلاك.

ولكن الجنون كان قد تسلط تمامًا على وعي الزوج، وأصدر قراره بالخراب الشامل. هَوَت يده بالسكين في الرقبة فغاصت فيها حتى مقبضها، منتزعة صرخة غليظة يائسة ذات نبرة عدمية، مصحوبة بحركة عنيفة نهائية لا أمل بعدها. ورغم أنه كان يلهث إلا أنه وقف في غاية من الهدوء والاستسلام والبلادة والزهد ملقيًا بكل شيء وراء ظهره. صوتت امرأة في النافذة. سقطت أخرى مغمًى عليها. اشتد توتر الأعصاب.

– لا بد من الاتصال بالنجدة.

– ما الفائدة؟ ستجيء عاجلًا أو آجلًا.

– لعله ما زال يوجد أمل في إنقاذها.

– هيهات! إنهم يحققون مع الشهود كما لو كانوا متهَمين. وربما وجدت نفسك متورطًا في خطأ لا يفطن إليه إلا رجال القانون.

– مهما يكن من أمر؛ فعلينا أن نعترف بأن موقفنا شاذ، وأنه لا يُصدَّق.

– عندي أمثلة بالعشرات تشهد بحماقة من يحشرون أنفسهم في مثل هذا الأمر.

– الحق أننا أخطأنا ولا عذر لنا.

– ما جدوى الكلام؟ ضاعت الست. وضاع الرجل، وضاع الأطفال. وربما لم نُعْفَ بعد ذلك كله من الاستجواب.

وقد حصل فتحققت مخاوفهم. وأدلى كلٌّ بشهادته منتحلًا لنفسه شتى المعاذير. فمن كان يظن أن خلافًا زوجيًّا يفضي إلى تلك النهاية؟ ومن يجرؤ على التعرض لقاتل تلبَّسته حال جنونية؟ وكلهم أنكر واقعة الاتصال بالنجدة، وأكثر من واحد قال: إنه القدر، وأن الحذر لا ينجي من القدر.

ويحكي الضابط الحادثة في مجالسه ويقول بمرارة: كان من الممكن إنقاذ المرأة والرجل، ولكن ذلك ما حدث دون زيادة!

آخِر الليل

غادر الجحيم عند منتصف الليل. جميع أنوار الشارع المستقيم والشوارع المتقاطعة تنصهر في باطنه، تنفجر في نافورة من الأضواء المتضاربة، وأعلى العمائر يتراقص. لا ملمح هداية يستدل به في خط سيره، ولا علامة يسترشد بها، فر الجميع وتلاشَوا. السيارات تَقلُّ بعض الشيء، الآدميون لا ينتهون. يترك نفسه لقدميه، كما اعتاد أن يعتمد عليهما في الملمَّات، ومن تَقُدْه قدماه فلا يضل. ثمة قصة عن حمار مرموق، ولكن ما هي؟ ها هو رجل قادم من الناحية الأخرى، سيرتطم به إذا سار في خط مستقيم، لكن القادم ينتبه إليه، ينحرف، لا شبرًا أو شبرين، ولكن إلى وسط الشارع كأنما يهرب. الجبان. تضاعف شعوره بقوته الكامنة ودار رأسه تيهًا، ولم يعد يقلق لنسيان قصة الحمار المرموق. واصل سيره يخوض الليل والأنوار، يعرض عن أبواب المحالِّ المغلقة، ويتجاهل المارَّة. ووجد نفسه أمام مطعم «الرائد»، فانطلق داخله حتى وقف أمام طاولة صاحبه الذي رمقه بنظرة حذرة: الدنيا صغيرة رغم ما يقال عنها، أنا قادم إليك من آخر الدنيا.

فهزَّ الرجل رأسه متعجبًا: لن أوصيك؛ فلست في حاجة إلى توصية وأنت العليم بالزبائن، وعارف طلبي؛ تشكيلة محترمة من الكباب والكفتة والطرب مع كافة السلطات والمخلَّلات، سخِّن العيش، ولا تنسَ الحلوى. هل يطول الانتظار؟

فقال المعلم: بل نُرسلها إلى البيت كالعادة.

– تُشكر.

ودس يده في جيبه، ولكن الآخر عاجله قائلًا: سنرسل الفاتورة مع الطعام.

فرفع يده تحيةً ثم ذهب. رجع إلى خوض الليل والأنوار وتجاهل المارَّة. وعاد يحاول تذكر قصة الحمار المرموق، حتى وجد نفسه أمام محل «الكبير» الحلواني المعروف، فاندفع حتى وقف أمام صاحبه: الدنيا صغيرة رغم ما يُقال عنها.

فقال الرجل باسمًا: وأنت قادم من آخر الدنيا.

– عمرك أطول من عمري.

– أعرف المطلوب؛ تشكيلة من البسبوسة والكنافة والبقلاوة بأنواعها المختلفة.

– كبير ابن كبير.

– وستسبقك إلى البيت مع الفاتورة.

فرفع يديه شكرًا ومضى إلى العالَم الآخذ في النعاس. واقتحمته ذكرى عزيزة جدًّا؛ ذكرى ذلك الرجل الذي صاحَبه يومًا مثل ظله. شد ما يستحق الرثاء بحكايته الغريبة! وخليق به أن يقول له: شد حيلك واضرب الدنيا بالمركوب؛ فهي دنيا لا تستأهل إلا ضرب النعال. هو ثالث ثلاثة أشقاء وأصغرهم. نعم أصغرهم يا عزيزي، فاشترك الآخران في تدليلك فترة من الزمن، ولو على سبيل المجاراة ومداراة الغيرة المتأصلة. وشاء الحظ، وهو كل شيء في الدنيا، أن يوفَّقا في المدارس؛ فيصير الأكبر وكيل وزارة للمالية والأوسط كبير مفتِّشي الري، على حين أبى الحظ أن تحظى بأي قدر من التوفيق، فحتى الخط لا تفكه. ولكن ما قيمة ذلك لشخص قُدِّر له أن يملك بالوراثة مائة فدان؟! وملكتها يا عزيزي، ورحت تستمتع بها، وتغدق في الوقت نفسه على مساكين الأصدقاء وما أكثرهم! فانهالت عليك الاتهامات لا أول لها ولا آخر، ورُميت فيما رميت به بالسفَه، واستصدروا عليك حكمًا بالحَجْر. سرقوك الشياطين، وقتَّروا عليك الرزق حتى انسدت في وجهك الطرق، ولم يكن عجيبًا بعد ذلك أن تقسم لتجلبنَّ عليهم الفضيحة والعار.

ووجد نفسه أمام حانة إيديال.

هشَّ وبشَّ، واقتحم ستارها المُسدَل ذا الخيوط الخرزية البيضاء. رأى الفُرسان في الركن الأيمن حول الكئوس. وجَموا لحظة وهم ينظرون، فقال ليُذهِب عنهم الروعة: لا ترتاعوا .. أخوكم من طين مثلكم!

فغلبهم الضحك، وقال أحدهم: نقدِّم لك كأسًا؟

فقال باستعلاء: لا أسمح لقذارة بالدخول في معدتي، ولكني سأهنِّئك قريبًا بوكالة الوزارة!

– ربنا يسمع منك!

وسأله آخر: أصحيح ما يُقال؟

– وما هو؟

– أنه عُرضت عليك وزارة الصناعة فرفضتها؟

فقال بإباء: لست ممن يبيعون أنفسهم عند أول طلب!

– حتمًا ستقبلها في ظروف أفضل؟

– وعند ذاك تهنأ البلد قبل أن أهنأ أنا.

– رَجُل ولا كل الرجال!

– أنتم مدعوُّون عندي لقضاء سهرة رأس السنة.

– وستكون ليلة ولا كل الليالي.

وغادر الحانة إلى عالم التيه. ومرة أخرى ذكر الرجل الذي صاحبه يومًا مثل ظله. من الجحود ألا يزوره ليعزِّيه بكلمتين. إن موقفك يوم عزمت على أن تلطِّخ غرورهم بالعار موقف لا يُنسى. خلعت البدلة يا بطل واستبدلت بها جلبابًا أزرق، واقتنيت عربة يد وسرحت ببطيخ في مجالهم الحيوي، وعلى مرأًى من الذاهب والجائي. وارتعدت منهم المفاصل، وساقوا عليك الأهل والأصدقاء، ولكنك صمدت صمود الأبطال، واضطُرُّوا في النهاية أن يتجاهلوك متظاهرين باللامبالاة، فتماديت في التحدي، وقضيت لياليك في غُرَز عرب المحمدي. يا فارس الفرسان وضارب الدنيا بنعلك، وحتى يتاح لي لقاؤك، تقبَّل على البعد إعجابي وتقديري. أما أنتِ يا نوسة، يا سليلة الشرف، وكنز الجمال والفتنة، فحسبنا تعذيبًا لأنفسنا. الدلال له حد، أو هذا ما ينبغي له. اخترتكِ من بين آلاف من كريمات الأسر العريقة، ولم أختركِ للأسباب التي يجري وراءها الجشعون؛ لا لأصلكِ الطيب، أو أخلاقكِ الكريمة، أو تعليمكِ الراقي، ولكني اخترتكِ من أجل الحقيقة السافرة؛ عينيكِ اللوزيتين السوداوين بكحلهما الرباني، وصدركِ الملهم، وخلفيتكِ التي تجلُّ عن الوصف. ما يجوز أن نفترق بعد اليوم دقيقةً واحدة يا زينة نساء الأرض. ضاع منا وقت طويل بلا طائل، وضياعه كفر بالنعمة. إني قادم يا نوسة، فارجعي إلى قسمتك ونصيبك؛ فإن جميع طلباتك مستجابة. سر المأساة كلها في كلمة؛ أنني وُلدت في عصر يتشرد فيه الملوك في بلاد الغربة كالمتسوِّلين بعد أن خلَّفوا عروشهم وراءهم بيد السُّوقة، ثم إنهم بعد ذلك لا يأمنون الغدر ولا ينجون من المؤامرات. بذلك تنبَّأ قارئ الكف، ولكنني لم آخذه مأخذ الجد في وقته، وتركت الزمن يجري كيف شاء حتى استحكم الحصار.

وقادته قدماه في تجواله إلى البنك الأهلي الغارق في نومه مُسدل الأجفان. لعله من الحكمة أن يسحب من حسابه بعض المال ليواجه نفقاته الكثيرة، ولكنه لا يستطيع أن ينتظر حتى الصباح. وخُيل إليه أنه أصبح على حال تمكِّنه من الاهتداء إلى منزله العامر، وأن هيئة الأشياء آخذة في التغير رويدًا رويدًا، وأن رأسه يتغير أيضًا؛ حتى المشي لم يعد مستساغًا إلى غير ما نهاية، وأن جسمه يطالب بحظه من الراحة. ألعن الساعات ساعةٌ

تعرف فيها مَن تكون وكم يتبقى من الزمن، وتعرف أيضًا أن الوقت صيف، وأن الجو عدو الإنسان، وأنه يُرغم على التسليم دون شرط. ها هو النيل يجري في حال من الكآبة والاستسلام، بعد أن كُبِّل بالأغلال وأذعن لمشيئة البشر. وتحت الكوبري توجد أريكة من الصوان خالية، لم يشغلها صعلوك من صعاليك الليل بعد. تحسَّسها براحته، ومضى إلى شاطئ النيل، فعبر الحاجز الحجري ثم انحدر نحو الماء. خلع جلبابه مُبهَم اللون وعلَّقه بفرع شجرة، فبدا عاريًا كما ولدته أمه، وراح يغوص في الماء حتى غمر صدره ليزيل عن جسده الحرارة والعرق في تلك الساعة من الليل، وغنى بصوت كالخوار «البحر بيضحك ليه»، وغسل وجهه ورأسه الأصلع، ثم صعد راجعًا إلى الطوار آخذًا جلبابه بيده، وانتظر حتى جف جلده وارتدى الجلباب، واستلقى فوق الأريكة. وما لبث أن تلاشى في الغيب فتصاعد شخيره مثل نقيق الضفدع.

القتل والضحك

ما أكثر الراحلين! أُدهش وأتحير كلما طافت أشباحهم بذاكرتي، أسباب متنوعة، متضاربة وأحيانًا متناقضة، ولكنها تفضي إلى نهاية واحدة، ويطاردني حلم ثابت. يلح عليَّ في أوقات الفراغ، وما أطولها، حلم خليق بصاحب ثأر تخلَّى عن إنجاز مهمته. وهو لا يفارقني حتى في ذلك البيت الخلوي الذي صادفته ذات يوم ناشدًا النسيان ساعة أو بعض ساعة. أجلس إلى جانب المعلمة المتربعة فوق كنبة تركية مثل قاعدة تمثال — ضمن زوار — وأتفحص بعنايةٍ المكان ومعروضاته. أتصفح الوجوه البيضاء والسمراء والسوداء، البدينة والملفوفة والنحيلة، وهن جميعًا على أتم الاستعداد، على مألوف التقاليد بتقديم الشراب، فتهش المعلمة وتثني على الأصل الطيب قائلة: إن جل زبائنها يجيئون عادة من بين الصفوة. والشهادة لله أن المكان أنيق والأثاث كريم والنظافة متألقة ورائحة البخور مخدرة مقدسة. أما السيدة اللحيمة، فتُباهي قبل كل شيء بالأمن والأمان. وأظلني الحلم القديم بجناح يقطر دمًا، وبهمسات داعية للخير والفلاح. ووقع الاختيار على بيضاء نحيلة لا حول لها، فقلت للمعلمة «الحمراء»، أي ذات الفستان الأحمر: سرعان ما صرنا وحدنا في الحجرة الصغيرة الكاملة، فراحت تتجرد من فستانها وقميصها وتستلقي في تسليم وسلامة. اقتربت من الفراش بكامل ملابسي يقودني الحلم القديم. أعابث الخد والعُنق وأغوص في اللحظة الحاسمة. وبسرعةٍ أُطوِّق العنق الرقيق الطويل بقبضتي، وأشد عليه بكل ما أوتيت من قوة، غير متأثر بمقاومة يديها وعنف ركلات قدميها في الهواء، واستغاثة عينيها الجاحظتين البائسة الملهوفة على النجاة. ولم أفكَّ قبضتي حتى سكن كل شيء سكون الموت. وأقف وأنظر وقلبي يلهث في دقات متتابعة. وأرى الموت وهو يضع قناعه فوق الوجود المتهالك، ويرسم على صفحته النائية آي البعد واللامبالاة. وأفكر في النجاة مؤجلًا ما عداه. دون عجلة كيلا أثير التساؤل. ونظرت إلى نفسي في مرآة صغيرة في

موضع عاكس للفراش والجثة. وأجهضت قشعريرة اقتحمتني بقوة غير حميدة. وقلت لنفسي مُعزيًا ومُشجعًا: أديتُ ما كان عليَّ أن أؤديه. ها أنا أمضي نحو الباب أفتحه، أتركه مواربًا زيادة في إبعاد الشُّبهات، وأسير متمهلًا نحو الباب الخارجي متجاهلًا المكان والحاضرين. وعندما أنتهى إلى الطريق النائم في ليل الصيف، أحث الخُطى مدفوعًا برغبة طارئة في الهرب نحو الشارع الرئيسي. وأبلُغ بنسيون ليدا وسط المدينة في الهزيع الأخير من الليل. أتناول حبة منوِّم لا أتعامل معه عادة إلا عند الشدائد. صحوت من نومي قبيل الظهر مشتعل الرأس بالكسل والذكريات. طلبت الإفطار ولكني حسوت الشاي وحده، وأنا أقول لنفسي: أنت من الآن فصاعدًا قاتلٌ جارٍ البحثُ عنه. تُرى هل أحل مشكلتي بقوة الإرادة أو أنني أسير من سيِّئ إلى أسوأ؟ وماذا عن حياتي الجديدة بالتأمل في هذه الساعة الفاصلة الدامية؟ فَرْدٌ أُعد للخيَّال، ولكنه يتعيش من السمسرة. معارفه بلا حصر ولا صديق له، يمقت فكرة الزواج والإنجاب. وذهبت إلى البلفدير بالهرم لأنفرد بنفسي وأفكر. جو لطيف في أواخر الربيع والجلوس يحلو في حديقة النخيل وأُصص القرنفل. غالبًا لم يعرفني أحد من الزبائن المعدودين. هناك لا يُسأل أحد عن هويته، ولكن حتمًا ستحصر التهمة في جريمة يود الجميع أن تندثر وتختفي. أرفع قدح البيرة وأتخيل ما حدث. المُعلمة تتساءل عما أخر البنت عن الرجوع إلى الصالة. تُرسل في طلبها. إما تَفَضح صرخة فزع الجريمة، وإما يُحبس الفزع في الصدور، ويُدفن السر في بئر. في الحال الأولى يَنفضُّ السامر في عجلة ولَهْوجة، ويفر كلٌّ إلى حال سبيله. في الحال الثانية يتواصل العمل في أمان. وفي الحالتين تفكِّر المعلمة كيف تخفي الجثة وتحمي نفسها وعملها من قبضة القانون. الجميع الآن يعملون على طمس أي أثر يمكن أن يؤدي إليَّ، يتمنون لي السلامة ضمانًا لسلامتهم وسمعتهم. أستطيع أن أُهددهم وهم لا يستطيعون. لكن هل تنجح المعلمة في إخفاء معالم الجريمة؟ ألا ينسرب إليها الخطر من منفذ لم يجرِ لحذرها في خاطر؟ تناولت غدائي في البلفدير مع مزيد من البيرة والنشوة. وعند هبوط العتمة مضيت في تاكسي إلى الشارع. وتفحصت البيت وأنا أمر به. وجدته مُسربلًا في هدوئه ورأيت النور يشع في نافذتين، وكأنما يواصل تقديم خدماته اليومية. ولم يكدر صفوي في الليلة التالية إلا أنني رأيت في نومي استغاثة الفتاة البائسة، وهي تغوص في الانكسار بين قبضتي. ولكن ذلك كان أهون ما توقعت. وتساءلت عن مُستقرها الأخير: أيكون قعر النيل أم مفازة في الصحراء، أم مدفنًا في باطن حديقة البيت الخلفية؟ سيشترك الجميع في جريمة الإخفاء بدافع الرغبة في النجاة والدفاع عن لُقمة العيش. وأفظع من ذلك يُنسى

في وقت أقصر من ذلك. وأتصفح الجرائد بعناية دون العثور على ما يكدر الطمأنينة. رغم ذلك لم يغِب عن وجداني ما حصل دقيقة واحدة. إنه حي بكل تفاصيله هناك. وهو يزعجني أيما إزعاج؛ ولذلك تخطر لي أفكار جنونية لا بهدف التنفيذ ولكن حبًّا في استعراضها ليس إلَّا، كأن أبعث برسالة من مجهول إلى قسم الشرطة. ولكني وجدت وسيلة للترويح عن النفس مأمونة العواقب في مقهى «العائلات»؛ حيث تجمعني الأماسي ببعض الصحاب. رويت لهم تفاصيل الجريمة باعتبارها من بنات الخيال، واستطلعت تصوراتهم عما يمكن أن يحدث. أجمعوا على أن مصلحة الجميع تقتضي إخفاء آثارها، غير أن أحدهم قال: ويُعثر على الجثة ولو بعد حين، وربما بمصادفة لا تجري على بال، ثم يُنتزع القاتل من مكمنه الآمن.

ضايقني ذلك بطبيعة الحال، وخِفتُ أن يتلاشى الأمل، بارتكاب الجريمة، في حياة أشد معاناة. وما الحيلة وكلما نظر نحوي رجل توهمت أنه كان هنالك تلك الليلة؟ أو كلما سمعت وَقْع قدم ورائي تصورت أن أحدهم يتبعني؟! وضاعف صاحبي من كربي عندما قال لي: أتذكر جريمتك الخيالية؟ .. حكيتها لصديق مخرج تلفزيون، فأثارت خياله، وقرر أن يجعل منها نواة فيلمه القادم.

ضايقني ذلك، وآيسني بصفة قاطعة من النسيان.

وضايقني أكثر أن جاء المخرج مع صاحبي ذات مساء للمناقشة. قال: أنت صاحب الفكرة وتستحق مكافأة رمزية، هل تستطيع أن تصيغها في قصة؟

فحركت رأسي نفيًا فقال: طبعًا هي بصورتها الراهنة مستحيلة.

– مستحيلة؟!

– لا بد من باعث على الجريمة، الحب والخيانة مثلًا، أو يكون القاتل مهزوز العقل، فيتصور أنه بقتلِ امرأة من هذا النوع، فهو يحارب الرذيلة مثلًا.

فندَّت عن منكبي حركة استهانة فقال: لا جريمة بلا باعث، ولا بد أن ينال القاتل جزاءه أيضًا.

فقلت وأنا أداري غيظي: هذا قانون الجرائم الخيالية، أعني الروائية.

– العمل يجب أن يكون معقولًا وأخلاقيًّا.

فندت عن منكبي حركة الاستهانة، فقال ضاحكًا: يبدو أنك لا تصلُح أن تكون مؤلفًا.

فقلت ساخرًا: ولكني أصلح أن أكون قاتلًا.

فقهقه ضاحكًا، وتفرس في وجهي بمودة، وقال: على كل حال فالفكرة تعد بقصة جيدة إذا اهتدينا إلى باعث مثير ومقنع، واقترحنا خطة محكمة؛ للكشف عن الجثة والقبض على القاتل.

فتساءلت بكآبة باطنة: مثل ماذا؟

الخطة المحكمة لا تُرتجل، ولكنها تُسبَق بتأمل وتفكير ومراجعة الأفلام المشابهة، غير أنه على سبيل المثال يمكن أن نتصور للضحية عاشقًا مخلصًا يحفزه اختفاؤها للعمل، أو أن تُكتشف الجثة بالمصادفة عن طريق بستاني الحديقة أو صياد في النيل، الفروض هنا لا حصر لها.

انتهت المناقشة وانتهى اللقاء، فسقطتُ في دوامة الظنون، وغلبني ميل جامح لملاحظة الناس والأشياء. أسير متمهلًا رغم الزحام أو أجلس قريبًا من الطريق لأتصفح الوجوه والحركات ووسائل المواصلات والسِّلَع وواجهات المحالِّ والمباني. أتصفحها بعناية عالِم مُكلف بوصفها وتحليلها.

ووجدتُني وجهًا لوجه مع المعلمة في بقَّالة السعادة بشارع البستان. رغم السيادة والخبرة والدهاء شحب لونها وانهزمت أمام خوف جاثم. تجاهلتْني فخانها الاضطراب غير أنه لم يلمس هزيمتها سواي. ولما انتهينا من التسويق وقفنا أمام الدكان متقاربين، فقالت همسًا: ها أنت حقيقة لا خيال.

نظرت نحوها كالمُنكر. فتساءلتْ: لِمَ فعلتَ فعلتك المنكرة؟

تساءلت كالداهش: حضرتك تكلِّمينني؟

فمضت عني وهي تقول: منك لله!

كدت أضحك، وغمرني إحساس بالأمان، بل فكرت في تكرار التجربة في بيت جديد. غير أنه كان إحساسًا عابرًا. وارتددت إلى الملاحظة والغوص في صميم الأشياء. وفي أوقات الفراغ أتذكر قول المخرج: «الفروض لا حصر لها.» هذه هي الحقيقة الغائبة عن ملاحظتي، ولكنها تتضارب في عقل أو أكثر ليلَ نهار. يوجد فاعل أصلي هو أنا، وشركاء هم المعلمة ومن ساعدها على إخفاء الجريمة، وتوجد الضحية أيضًا. لا يمكن أن تبقى هذه الأشلاء مبعثرة إلى الأبد. وغير محتمل أن أظل منفردًا بنفسي بلا نهاية. وقمت بزيارة غير متوقعة للمخرج في مكتبه. استقبلني بابتسامة عريضة قائلًا: حُلت المشكلات كلها تقريبًا. فأعلنت رضاي متمتمًا: مبارك!

– وجدنا الخطة المحكمة، اكتُشفت الجثة وقُبض على المعلمة، وقرأ القاتل قصته خبرًا في الجرائد فقرر الانتحار، تُرى ما رأيك في أفضل وسيلة للانتحار؟

فاقشعر بدني وتساءلت: ماذا تقصد؟

– نحن أمام عدة اختيارات، ضع نفسك في مكانه، فماذا كنت تختار؟

فازدردت ريقي وقلت: أخفها ألمًا!

فقال ضاحكًا: أنت تُفكِّر في نفسك، ولكني أفكر في أمرين، أولًا: أشدهما تأثيرًا في الجمهور. وثانيًا: أصلَحُهما من الناحية الجمالية للكاميرا!

وقلت لنفسي: يا له من رجل سعيد!


هنداوي